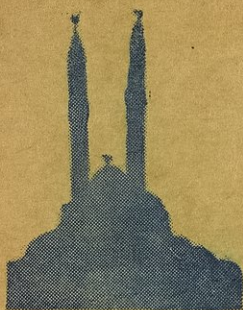


Princeton University Library



32101 072535618



فِي الْأَرْضِ الْمَقْدِسَةِ

(بِإِثْنِ مِصْرٍ وَأَبْحَثَ أَر)

بِقَلَمِ

أَبْرَاهِيمَ مُحَمَّدٍ جَيْبٍ

الْمُقْتَسِمُ بَوَازِيرَ الدَّخْلِيَّةِ

حَالًا

وَعَضُو مَجَالِسِ النُّوَابِ

وَالْقَابِضِ بِالْمَحَاكِمِ الْوَطَنِيَّةِ

وَمُذِيرِ تَحْقِيقِ الشَّخْصِيَّةِ

سَابِقًا





فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ

(بَيْنَ مِصْرَ وَابْحَااز)

Fī al-ard al-muqaddasa h

بقلم

ابراهيم محمد حبيب

المفتش بوزارة الداخلية

حالا

وعضو مجلس النواب

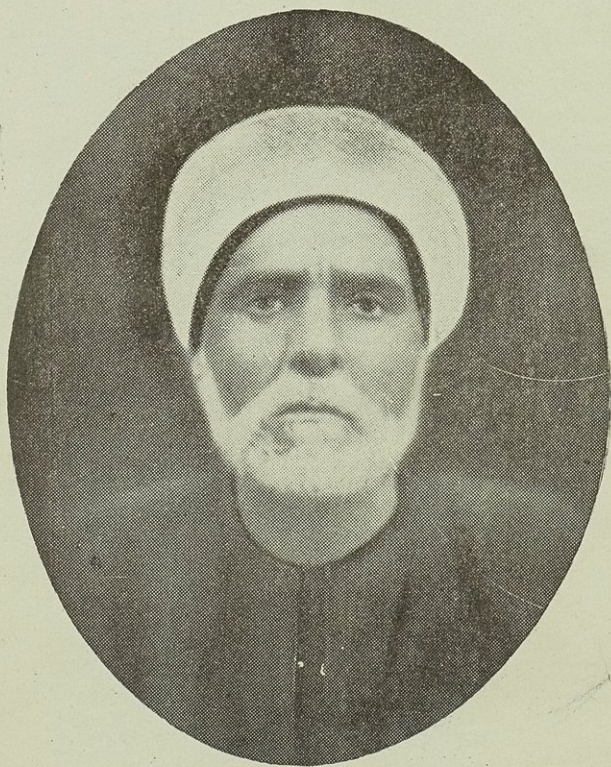
والقاضي بالمحاكم الوطنية

ومدير تحقيق الشخصية

سابقا

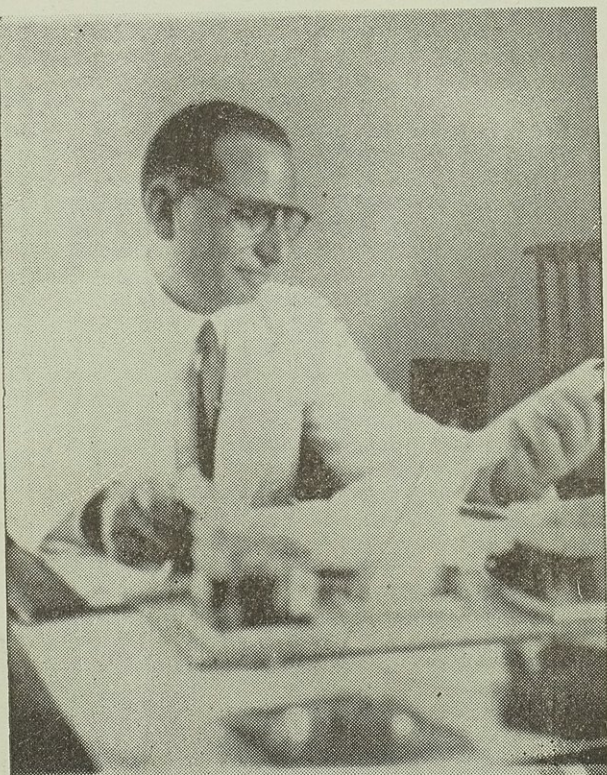
راجعته ووقفت على طبعه جامعة القلم
٥٣ شارع ابراهيم باشا بالقاهرة

مطبعة العالم العربي بالقاهرة
الإدارة: ٥٣ شارع ابراهيم باشا (انام شبر) ت ٤٧٠٦



شيخ العرب محمد حسن حميد
(والد المؤلف)

2269
.39 543
.334



المؤلف وهو يقرأ في كتاب

إلى أبي :

الذي كان سبب وجودي

والذي هذبني ورعاني

والذي استصحبني في هذه الرحلة المباركة

أهدى هذا الكتاب ؟

المؤلف

تقديم

كنّا أترابا في قرية واحدة ، جمعنا النشأة واللعب ، ثم
نظمنا المدرسة الأولى في سلك واحد .

فلما أتممنا المرحلة الأولى سارع هو إلى الالتحاق بالمدرسة
الابتدائية ، واتجهت إلى المعهد الديني ، فافترقنا . كنت لا ألقاه
إلا في الإجازات الموسمية والسنوية . ومع أنه من أبناء الأعيان
فقد نشأ بيننا ميل فطري إلى اللقاء والصحبة يختلف عن
ميلي إلى الأتراب الآخرين ، ما كنت أعرف مصدره ، ولعله
هو الآخر ما كان يعرف مآتاه ، وظننت أن ذلك الميل
الفطري تعدو عليه الأيام حين نفترق لإتمام دراستنا ، ولكني
رأيت الأيام تزيده توثيقا وارتباطا ، كنّا كلما كبرنا ازداد
الإخاء وتوطدت أواصر الصحبة ، وأخذ كل منا يستقبل وجه
الحياة بفطرته واستعداده .

اختلفت الطريقة التي يواجه كل منا بها حياته ، فهو
يواجهها بأسلوب أبناء المدارس ، وأنا اتقبلها بطريقة أبناء
المعاهد ، فكنا إذا التقينا اشتد بيننا الجدل أحيانا ، لكنه
على فرط اشتداده لم يعكر صفو الصداقة التي ثبتت شجرتها
على الأيام ، بل لقد كنت ألحظ أن عنفي في بعض الآراء
يزيده تشبها بصداقتي وإخائي .

وأتممت دراستى التى كانت مرحلتها قصيرة ، والتحقّت بالصحافة ، وكأنه غبطنى على هذا التوجه ، وفرح بهذا المنهج الذى اخترته وحدى ، وكان هو ما يزال طالبا فى المدارس الثانوية ثم التحق بعدها بمدرسة الحقوق ، فازدادت صلتنا بهاء وتعاوننا ، كان يحب ان يرانى ويرى ماجد على عقلى من تطور واتساع ، وكنت حريصا على أن أزوره وأشبع روحى بالعاطفة المثالية التى نشأ يغمرنى بها .

ودلف الى المحاماة وبداله نشاط ملحوظ فى الكتابة الاصلاحية كنت ألمس فى ثناياه حياة نابضة قوية ، ثم نال شهرة شجعت على أن يرشح نفسه لعضوية البرلمان ، ثم لم يرض عن الحياة النيابية اذ ذاك ، ففزع بوظيفة وكيل نيابة ، ودارت الأيام فإذا هو قاض ، ثم اذا هو بعد ذلك مدير ادارة تحقيق الشخصية ، ثم اذا هو مفتش بوزارة الداخلية . ذلك هو الأستاذ ابراهيم محمد حبيب . مؤلف هذا الكتاب . لم أعرفه فى حفل ، أو فى سفر أو فى اية مناسبة من المناسبات التى تؤسس العلاقات العصرية ، ولكنى عرفته صليبا يلاعبنى والأعبه ثم تلميذا يناقسنى وأناقسه ، وما زلنا منذ فجر الحياة الى اليوم نستقبل الحياة ، ونقبل خيرها وشرها باسمين .

أما هو فقد وفق فى ربيع عمره الى أداء فريضة الحج ، رغم شواغله ورغم مباحج الحياة التى تحيط به وتصرف أمثاله عنه وكتب عنها هذا الكتاب الذى رأيت أنه يصلح للنشر ، وحسبى أن أقول إننى عرفته منذ عرفته يجرى على سجيته

في حب الحياة والناس ، لا تجد في طريقته اصطناعا ولا تعملا ،
يبدل أقصى جهده في سبيل الخير الذي يؤمن به ، ويحرص
على ارضاء الله ، وبر والديه وأسرته وكل من يتصل به من
الاحياء . ويجب الإنتاج الفكري حبا يفنى فيه بكل قواه .

وقد استطاع أن ينحو في عرض هذا الكتاب نحو شيقا ،
يهز أوتار القلوب ، ويؤثر في النفوس ويهيشها للوجدانات العلوية
في كل موقف من المواقف التي تفيض رهبة وجلالا وخشوعا
وتسمو بها عن كل أعراض الدنيا لتفنى في ذات الله جل جلاله .

ولهذا كله ، ولأن موضوع الكتاب مثار وجدانات دينية
حبية الى قلوب المسلمين كافة ، ودعوة يسيرة الاستجابة لتحقيق
العطف والمرحمة لشعب تكفل الله جل شأنه في محكم آيه بخنين
القلوب اليه ، لتيسير رزقه في مقره المقدس ، جهدت في إخراجه .

وحسبي ، وفاء للصدقة التي نبتت مع الصبا ، وازدهرت
على مر السنين ، وتحيية من روعي المشوقة للبيت العتيق ، ولآله
الذين لهم عند المسلمين أعز مقام ، وحبا لله ذي الجلال
الذي جعل مكة أشرف البقاع ، وتلبية لأسمى اغراض المسلمين ،
ما بذلت من جهد في إخراج هذا الكتاب ، والله على
ما أقول شهيد .

على محمد بركة

سكرتير جامعة القلم

هَذَا الْكِتَابُ

لم أكن حين سافرت إلى الأراضى الحجازية فى الثلاثين من شهر يناير سنة ١٩٣٨ ، لأداء فريضة الحج ، قد اعتزمت تدوين هذه الرحلة ، فما احتفظت به من مذكرات عنها لم احتفظ به أساسا للنشر ، ولكن عند ما عدت فى الرابع من شهر مارس ذلك العام لقيت وزير العدل يومئذ فأشار على بنشرها ، فبدأت أنشرها فى « السياسة الأسبوعية » التى كان صدورها إذ ذاك يتوالى تحت عنوان « بين مصر والحجاز » .

ومنذ عامين أشار على « الأستاذ على محمد بركة » سكرتير جامعة القلم بجمع هذه المقالات فى كتاب تسجيلها ، ووفاء للأرض المقدسة التى كتبت عنها ، وبرأ بأهلها وبمن يستحقون التنويه من رجالاتها ، وكنت كلما هممت بذلك عاقتنى مشاغل الوظيفة وأعباء أخرى كانت تستنفد كل وقى وتفكيرى ، ولكنى فى هذا العام صحت عزيمة على إخراجها فى كتاب ، تيمنا بها ، ومساهمة فى الإشادة بفضل الحجازيين ونشاطهم الذى بدأ يتجه نحو الإصلاح والثوب الى التقدم السريع فى كل النواحي ، ولاطمئنانى للإخلاص والعناية والتعهد العلمى والفنى الذى أخذت تساهم به « جامعة القلم » فى خدمة المؤلفين والمؤلفات .

ورأيت أن انهج في كتابة هذا المؤلف نهجا قصصيا ، ليكون سهل التناول ، شيق العرض ، وحرصت على ذكر المناسك الدينية في مكان أدائها ووقته ، كما رأيت ان اعرض هذه المناسك في نهاية الكتاب عرضا مجملا مرتبا لتسهيل مراجعتها والاسترشاد بها اثناء الحج لمن أراد .

ولا يفوتني ان أسجل ان القطر الحجازي قد جدت فيه بعد أدائي الحج في سنة ١٩٣٨ اصلاحات عمرانية هامة بفضل جلالة ملكها الدائب على ترقية هذه البلاد ، ونشر الأمر . والإصلاح بين ربوعها ، ولهذا فإنني جمعت هذه الاصلاحات ودونتها كذلك في نهاية الكتاب ، كما لا يفوتني أن أنوه بما كان لتفحات استاذي وصديقي العالم السيد محمود ابو الفيض المنوفي ولحسن صحبته من أثر في إخراج هذا الكتاب .

واني اسأل الله ان أكون بهذا النشر قد أديت بعض الواجب على لمن تهفو قلوبهم الى الأراضى المقدسة التي أنزل فيها القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان .

المؤلف

ابراهيم محمد حبيب

محمد صلى الله عليه وسلم

محمد عليه السلام هو محور هذا الكتاب ، فهو الذى طهر الكعبة من الأصنام ، وهو الذى أنشأ الحرم المدى ، وهو الذى نزل عليه الوحى ان الحج فرض من الفرائض وركن من أركان الإسلام ، وهو الذى أنزل الله عليه قوله الكريم « ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً » وهو الذى قال « يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا » وهو القائل « من لم تمنعه من ذلك حاجة ظاهرة أو سلطان جائر أو مرض حابس فمات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا » .

فمحور هذه الرسالة هو محمد عليه الصلاة والسلام . وفى محمد كتبت مقالات طوال ، وأسفار ضخام ، فهو ملء مكة ، وملء المدينة ، وملء الحجاز كلها ، وملء الدنيا بآجمعها ، حتى الذين مايزالون يتشبهون بأديان أخرى أخذوا بتشريعاته وجروا على تعاليم دينه ، فلسنا الآن بصدد ذكر حياته وأثر رسالته . لكن فى مثل هذا الكتاب — ومحمد أكبر حافز على كل ما سطر فيه — ينبغى أن يفتتح بإمامة قصيرة عن تاريخه الحافل .

لقد اشتدت الحياة على محمد شدة لم تسلازم رجلا ممن
اختارهم الله لهداية الخلق ، فقد أدركته وهو طفل ، ولا حقيقته
وهو صبي ، وامتدت إليه وهو رجل ، ولا زمته حتى لقي ربه بعد
جهاد عنيف . وكان صلى الله عليه وسلم يتقبل كل صنوف الشدائد
والحن بصدر أرحب من الأفق الواسع ، ونفس مطمئنة واثقة
انه يجاهد لدين الله وإعلاء كلمته ، فأدى رسالته كاملة ، فصار دينه
هديا ونبراسا خالدا في العالمين على الايام والأجيال .

هاهو عبد الله بن عبد المطلب يبنى بآمنة فما يكاد يستودعها
محمدا حتى يغادرها في سفر إلى الشام يلتمس من تجاراتها
الكسب والغنى ، فإذا المنية تدركه ، وإذا الموت ينشب فيه أظفاره
قبل أن يعود إلى داره ، ويولد محمد فلا يرى له أبا ، ثم ترضعه
حليمة في مضارب بنى سعد حتى إذا ترعرع عاد إلى مكة ، وإذا
تقع عليه عين أمه يجدد في نفسها ذكرى أبيه فتتوجه لتزور قبره
ومحمد معها ، ثم لا تلبث أثناء عودتها من هذه الزورة أن تعثرها
العلة ويلازمها الألم فتقضى نحبها في الطريق .

ويعود محمد إلى مكة فقيد الأم والأب . ويكفله جده عبد
المطلب ، ويضفي عليه من الرعاية والحب ما لم يضيفه جد على
حفيد ، ولكن الموت يختطف هذا الجد أيضا ويترك محمدا
في كفالة عمه أبي طالب .

تلك هي المحن والأحداث التي ألمت بمحمد طفلا ولا حقه غلاما فيصمد لها ويتزعزع في أحضانها برعاية الله وحده الذي خلقه للرسالة العظمى وهيماء لها منذ نشأ ، فهو يحجب إليه رعاية أغنام عمه وأغنام طائفة من أهله تمهيدا لرعاية العرب كلهم ثم الإنسانية جمعاء .

واستمر هكذا قوى النفس ، رضى الخلق ، عفى اللسان ، عفى البصر ، امتحنته الأيام بعنف فصمد لها ، ولوحت له بالنعمة فامتنع عليها ، وكأنه كان يحسرى في ذلك الوقت على نهج لم يكشف له بيبانه .

واصطفته خديجة بنت خويلد لتبعثه على تجارتها إلى الشام حتى إذا عاد من هذه التجارة موقفا أعظم توفيق أرادت مضاعفة أجره فأبى أن يأخذ أكثر مما عاهدها عليه ، وكان له في نفس خديجة أثر شغلها واحتلال من نفسها كل فراغ . ففكرت أن تقترب به ، ثم استبعدت ذلك لكبر سنها . لكن الفكرة استبدت بها فأرسلت إليه إحدى صديقاتها لتعرض عليه ذلك فشكا قلة ماله فندلت له ذلك ، وتكفلت بإعداد نفسها لهذا الزواج ، فعرض ذلك الأمر على عمه أبي طالب فأقره وتزوجها بعد أن دفع عمه أبو طالب مهرها عنه .

وذاث يوم وجد معتكفا بغار في جبل حراء ، ثم عاد إلى مكة

فأخذ يطوف بالببيت ويعجب لتلك الأصنام التي تعبدوها قريش
 وغير قريش . ثم استمر يتردد على الغار ويعود إلى مكة ، ولكنه
 يعود ذات يوم من غار حراء مرتجفا يطلب فراشا وغطاء وبنام
 حتى إذا صحا من نومه سأله خديجة عما أصابه فيقول : إني لفي
 حراء أتعبد إذ هبط على شخص من السماء ودنا مني وهو يقول :
 أبشر يا محمد ، أنا جبريل ، وأنت رسول الله إلى هذه الأمة
 خفت منه أشد الخوف وخشيت على نفسي . ثم دنا مني وقال :
 اقرأ فقلت ما أنا بقارئ ، فأخذني وغطني بالنمط الذي أنا عليه
 حتى بلغ مني الجهد مبلغه ، ثم أرسلني وقال اقرأ ، قلت ما أنا بقارئ
 فأخذني وغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال « اقرأ »
 باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم
 الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » ثم قال « وإني لأخشى
 على نفسي يا خديجة » فقالت له والله لا يخرزك الله أبدا . إنك لتصل
 الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين
 على نوائب الحق » ثم أخذته إلى ورقة بن نوفل فقال إنه الناموس
 الأكبر الذي نزل على موسى وعيسى » ثم مال على محمد وقال :
 « والله لتؤذين ولتخرجن من هذا البلد » فقال محمد : ومن
 يخرجني » قال يخرجك قومك قال « أو مخرجي هم » قال نعم لم
 يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي وإن يدركني يومك
 أنصرك نصرا مؤزرا »

ودعا محمد إلى الدين الجديد ، واشتدت عليه قسوة قریش
كما اشتدوا على مناصريه وساموهم أنواع العذاب ، وكانوا كلما
ازدادوا بهم تنكيلا ازدادوا بمحمد وبدينه تمسكا ، واثتمروا على
قتله وعرف محمد خبر هذه المؤامرة فأتى بعلي بن أبي طالب وارقه
في مكانه ثم خرج مع أبي بكر والمؤتمرون بالبواب في نوم عميق
فلم يشعروا . وسار مع رفيقه الصديق حتى وصلا إلى الغار
فاختفيا فيه ونسج العنكبوت عليه خيوطاً . واستيقظ المؤتمرون
فلم يجدوا محمداً ووجدوا علياً في مكانه ، فخرجوا في إثره يبحثون
عنه حتى وصلوا إلى الغار فوجدوا العنكبوت ناسجا خيوطه
حتى سد الباب سدا يدل على أن أحداً لم يدخله منذ سنين . وأقام
في الغار ثلاثة أيام ثم غادره إلى المدينة فاستقبله أهلها بالبشر
والترحاب ، وأخذوا يتنافسون في استضافته حتى خشي محمد
أن يؤدي ذلك إلى خلاف جسيم ، وعرض عليهم أن يتركوا
الناقة تذهب حيث تريد ، حتى إذا وصلت الناقة إلى مكان الحرم
أناخت فقال هذا بإذن الله منزلنا ، ثم بنى فيه الحرم وبنى له منزلاً
متصلاً به وأخذ ينشر الدين في صحبة من المهاجرين والأنصار .
وعلمت قریش بما أحرزه من نصر فتوجهوا إلى المدينة للقاءه
فخرج إليهم برجاله وقضوا عليهم . ولما عاد إلى مكة بعد ذلك

استقبله أهلها استقبال الفاتحين ، ولكن فريقاً منها تجمع للكيد به
وقامت الحرب فنصره الله إذ ذاك نصراً عزيزاً . وخشى أهل
المدينة أن يبقى الرسول في مكة وطنه الأول وحدثوه في ذلك
فطمأنهم .

ولما أقاموا في المدينة أذن رسول الله في الناس بالحج فخرجوا
إلى مكة واجتمع فيها إذ ذاك مائة ألف أو يزيدون يهتفون
بصوت واحد : لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد
والنعمة لك والملك لا شريك لك ، حتى إذا ما أطل على البيت
العتيق قال « اللهم زده تشريفاً وتعظيماً ومهابةً ونوراً » وطاف
به وسعى بين الصفا والمروة حتى إذا صعد الصفا قال لا إله إلا
الله ، الله أكبر ، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ، ونصر عبده
وهزم الأحزاب وحده » ثم ذهب إلى عرفات وخطب
في الناس فقال « أيها الناس اسمعوا مني أبني لكم فإني لا أدرى
لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقعي هذا ، فلا ترجعن بعدي
كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فطافت بالمسلمين الظنون
وأحسوا أنه ينعي نفسه ، وإن هذه هي حجة الوداع ، فلما تلا عليهم
قول الله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي
ورضيت لكم الإسلام ديناً » انقلبت الظنون يقيناً ووجموا
وزاغت أفئدتهم ، وخشوا أن يفارقهم ، فلما عادوا إلى المدينة

أخذوا يلحظونه كل يوم فإذا رأوا العافية بادية عليه سروا واستبشروا، فلما دخل عليهم المسجد يوماً ورأوه مريضاً هلمت نفوسهم فلما قال على المنبر: «إن عبداً خيره الله بين أن يؤتیه زهرة الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده» بكى أبو بكر وقال له «فدينك بأبائنا وأمهاتنا يا رسول الله» قال عليه السلام «أيها المسلمون إن أمن الناس على في صحبته وماله أبو بكر فلو كنت متخذاً خليلاً لا تتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة في الإسلام» فازداد أبو بكر بكاءً وازداد المسلمون نحيباً.

ثم ألتح عليه العلة فأمر أبا بكر أن يصلي بالناس، وازداد خوف المسلمين وإشفاقهم الأ يروه، فخرج عليهم وجلس على أول درجة من درجات المنبر وحمد الله وأثنى عليه وقال «أيها الناس بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم . هل خلد بني قبلي فأخلد فيكم . ألا إني لا حق بربي وإنكم لا حقون بي، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً، وأوصى المهاجرين فيما بينهم، وأوصيكم بالانصار خيراً فإنهم الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم . ألم يشاطروكم في الثمار؟ ألم يوسعوا لكم في الديار، ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة . ألا واني فرط لكم وأنتم لا حقون بي، ألا وإن موعدكم الحوض فمن أحب أن يردّه على غدا فليكفف يده ولسانه إلا فيما ينبغى .»

وخفت وطأة المرض قليلاً فاستبشر المسلمون خيراً
ولكنهم ما لبثوا أن سمعوا البكاء في حجرته ، فأيقنوا أن الله
قضى قضاءه .

وهكذا تمت نعمة الله بتبليغ هذه الرسالة التي آتت ثمراتها
في الأرض فنشرت الهدى والعرفان ، ومحت الضلال والكفران
وستظل خالدة تملأ الدنيا إسعاداً وهدى ورحمة للعالمين ؟

المؤلف

كيف نشأت فكرة الحج

في عصر اليوم الأول من أيام عيد الفطر غادرت مدينة المنصورة حيث أعمل ، إلى قريتي لأقضى بعض الوقت بين أهلي وعشيرتي وجيراني ، ألتبس الرضا والمحبة من أهلي وأشارك مع عشيرتي وجيراني فيما جرت عليه العادة : أهني المسرور وأواسي المحزون فيما عدت به العوادي والمقادير ، وأجدد الصلات والعهود بين خلاني وأصدقائي ، وأتحلل من قيود المدنية ومظاهرها إلى الحياة الريفية الهادئة ، وأمتع النفس فوق الهواء العليل والشمس برفاق الصبا واخوان الصفاء الذين ولدت بينهم ونشأت فيهم . واستنشقت وإياهم نسيمات الحياة الأولى وزاملتهم في أيام الطفولة البريئة ، وخطوت معهم إلى الرجولة بقلوب نقية ونفوس رضية ، تلك الطفولة التي لم يكن أحدنا أيامها يفكر أو يدري كيف يفكر فيما يطلقون عليه اسم المستقبل . يوم كنا وكل علمنا بالحياة صباح نستقبله بالبسمات ، ونهار نشغله باللغو والعبث ، ومساء لا ندري من أمره إلا النوم العميق والحلم الجميل . يوم كانت أحمالنا ملقاة على عاتق من يحملونها راضين غير شاكين ولا متذمرين . أردت أن أكون بين هؤلاء لتجدد عندي وعندهم ذكريات عهد مضى ما أحلاه وما أبدعه ، وأمتع بالريف حيث هناك والد واخوة لا يرون مني إلا حسنا ، يشكرون

كل نجاح ، وينسبون الأخطاء إلى حسن النية وسلامة الطوية
ويتلمسون لى الأعذار ، وهم فيما بين هذا وذاك يعتبرون
السيئة هفوة يسيرة لا تستوجب الاستغفار .

فى هذا الجو الصافى وبين هذه النفوس الطاهرة ذهبت
أقضى أيام العيد ، وكنت قبل ذلك أعلم أن والدى قد عقد العزم
على أداء فريضة الحج هذا العام ، غير أنه لم يكن يرى اعلان
هذا العزم إلا فى مواعده ، ومن رأيه دائماً أن ما ليس فى اليد
لا يرتبط به اللسان ، فالمدى بين العيدين واسع ، وما تدرى نفس
ماذا تكسب غداً ، أو لعل لحظة واحدة قد تحمل من الحوادث
ما لا ينتظره المرء فى أعوام « ولا تقولنَّ شيئاً لى فاعلٌ
ذلك غداً إلا أن يشاء الله » فقد تقهرنا الأيام على عدم المضى
فى أى غرض وإن بيتت النية وانعقد التصميم على انجازه ، فالأمر
لله وحده ، والأمر مرهونة بأوقاتها . فلا داعى إلى الاعلان مادام
المدى غير قريب ، وما دام من واجب الناس أن يستعينوا على
قضاء حوائجهم بالكتمان . وقد يكون الاعلان وحده سبب الإرجاء
فإن من الأهل والإخوة والاخوات من قد يرى من سن والدى
وصحته ما يدفعه إلى الإشفاق عليه من طول السفر ، وما يذاع
عن وعورة الطريق ومشقة الانتقال كثير ، خصوصاً أنه اعتاد
نظام نوم وطعام وتداو لا يتيسر هناك ، وقد يكون من آثار هذا

الإشفاق ما يحملهم على إقناعه بأن ينثنى عن عزمه وقصده الذى هو جاد فيه . وقد حدث فعلا عند ما ذاع الخبر قبيل السفر أن حضرت أخت له تقيم الحجة والبرهان على أن صحته وحالته لا تحتملان السفر ، وعلى أن الاسلام يعفيه منه ، إذ أن الحج لمن استطاع إليه سبيلا حتى قالت له : ولا شك أنك فى اعتلال صحتك وضعف قوتك غير مستطيع ، ولكن هذا القول لم يصل إلى نفسه ، ولم يتجاوز حد الأذنين ، فقد كان كل شىء من معدات السفر تاما حتى المراسم الطبية ، فطمأن خاطرهما وقال لهما : إن هنا وهناك أرضا واحدة ، وليس على المرء أن يبلغ التحرز والخوف على حياته حدا يقعد به عن الحركة ، فما تدرى نفس بأى أرض تموت ، وليس القعود بواق من انتهاء الأجل فالموت مدرك صاحبه ولو كان فى بروج مشيدة ، ثم ختم بقوله ها أنا قد أعددت العدة ، وعقدت النية وليس من أصالة الرأى أن أتردد والله يقول « فإذا عزمْتَ فتوكلْ على الله »

وكان من شدة مبالغته فى إخفاء الخبر أيام عيد الفطر أن لم يذكره لى ، فلم أحاول أن أسأل عن مقدار نصيب ما أوصانى به ، مترسما فى ذلك ألا أخرج عن رغبته وإن كنت واثقا أنه لن يخفيه عنى أبداً ، لهذا تركته يذكره عندما يريد ، لآحين أريد وكان لا بد لى فى اليوم التالى أن أركب إلى قرية قريبة

فاصطحبت أخى الأكبر فى عربة أقلتنا إلى حيث قصدنا، فأدبنا بعض الزيارات ثم عدنا، وفى طريقنا عرض الخبر عرضاً فتوسعت فى الحديث، وكانت الخطة المرسومة أن يكون فى رفقة والدنا أحدهما وخادم، وصح العزم على أن أكون أنا رفيقه فى الحج، وتملكنى الفرح لهذا التوفيق فى تحقيق رغبة ملحة استولت على خاطرى منذ قرأت « حياة محمد » و « فى منزل الوحي » وغيرهما من كتب السيرة، ومع أنى كنت صادق العزم على الحج والزيارة قبل هذه المصادفة، ولكنى لم أتوقع هذا الحد من القرب، فأنا رجل أعيش وحدى مع أولادى الصغار فى ديار لا قرابة لى فيها ولا نسب، ولست بمستطيع أن أنقلهم أثناء غيابى إلى قريتنا، فمنهم من لا ينبغى أن أقطع سير دراسته كما أنى غير قادر على أن أنقل إليهم بعض أهلى، ولديهم مصالحهم وأولادهم، وليس من الهين أن أتركهم وحدهم فى هذه البلاد. ثم أنا فى فصل الشتاء ولست آمن برودة الجو فى الطريق. ولو أننا فى فصل الصيف وكانت أراضى الحجاز على غير خط عرضها لما كان هناك محل لمروء هذه الخواطر، ولكننا فى فصل الشتاء حيث البرد الشديد وخيمت الموسم الدراسى فى إبانته.

كانت هذه الظروف تجعل التفكير فى السفر مستبعداً بالنسبة لى، مع ما بى من شوق ولهفة إلى أداء هذه الفريضة، فلما واثت الفرصة شملنى سرور بالغ، وقلت لنفسى إذا كان ما يشغلنى هو

أولادى فما غيبتي إلا شهر واحد يحتملونها فيه واحتملها وهم
لا هون بمدارسهم ومعهم والدتهم تلاحظهم فى أعمالهم والله
يرعاهم بفضله ويكلؤهم بعنايته ، وأما عن الجو هناك فلا شك أن
موقع الحجاز يجعله دافئاً ان لم يكن شديد الدفء ، ومع ذلك فإن
قليلاً من الحبيطة قد يمنع الأذى ، وهأنذا فى عملى قد تحملنى
الحوادث على قضاء ليل كامل فى شتاء المنصورة خارج منزلى
أحقق فى احدى القضايا وأجوس من أجلبها المزارع والطرق
فى جو البرد الشديد والضباب الكثيف ، فهلا أحتمل شيئاً من
ذلك فى سبيل أداء فريضة الله الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى ؟

أفلا أحتمل شيئاً فى سبيل أن أزور رسول الله وأمثل أمام
حجراته الشريفة ، وأقف حيث وقف وأصلى حيث صلى وأنا
فى هذا وذاك أرى مهبط الوحي الذى نزل فيه القرآن هدى ورحمة
للعالمين ! وفوق هذا فهى رحلة واجبة على كل مسلم هيأها الله
لى وأخلاقى من تبعاتها .

عدت الى المنصورة ومعى نفقات السفر لإعداد جوازاته
فلما وصلتها كنت جدلاً طروباً ، فسألتنى شريكى ما هناك فقصصت
الأمر عليها ، فسمعتة وظنته من قبيل التفاؤل والتمنى ، فلم تحسبه
جداً إلا بعد أن أكدته لها وأطلعته على ما حملته من معداته .
وقضينا ليلة كاملة نتحدث فيها بفضل الله وسابغ نعمته التى

كتبها الى ، ووددت أن ترافقني لولا أن حالة الأطفال لا تسمح
بغيبابنا معاً مدة طويلة في وقت واحد فعاهدتها على أن أهيه لها
سفرأ في العام التالي إن شاء الله .

لم يساورنا أى شك ولم تشب فكرتنا أية شائبة ، فقد كان
كل ما ارتسم في ذهني من صور يشجعني على أداء هذا الواجب
ويحفزني الى المسارعة اليه في رحلة جميلة إلى بلاد مقدسة ، ثم
شجعني أيضا اني مسافر في الواقع إلى قطر شقيق والبلاد التي
أنا راحل اليها بلاد عربية وأهلها يمتون اليها بأواشج القربى
والجوار ، والباخرة التي ستنقلني إلى تلك البلاد هي دار مصرية
شرقية بكل ما لها تين الكلمتين من معان ، ثم إنني سأجد مصريين
وشرقيين في كل بقعة من أرض الحجاز ، وسأجد في كل بلدة
من بلاده ديارا مصرية حقا . اليسنت لنا سفارة في جدة وفندق
ومصرف يخفق عليهما علم مصر ، ومثلهما في مكة المكرمة ؟
ومثلهما في المدينة المنورة : سفارة وتكية مصرية يقوم عليهما
مصريون ، وأحسست حقا انني سأكون في كل مرحلة كأنني
في الديار المصرية .

وقد علمت أيضا أن على بلاد الحجاز عاهلا يأنس الججاج
اليه ، ويرون في وجوده خير ضمان لراحتهم وأمنهم وطمأنيتهم
وعلمت أيضا أن بالديار كل ما يحتاج اليه الرجل من ضروريات

وكاليات . لذلك كنت كبير الثقة بأنى سألقى الراحة التى أنشدها
إلا بعض مشقة يسيرة لا يخلو منها سفر ، وإلا بعض تضحيات
لا يكاد الانسان يتخلص منها فى أى رحلة ، ذلك فضل الله
يؤتيه من يشاء .

ان فى كتابي هيكل باشا ^(١) ، وأعمال طلعت باشا ^(٢) الخالدة
ما يبعث النفس على الاسراع الى أداء هذه الفريضة ، فلقد وصل
أولهما إلى أعماق النفوس فزادها ايمانا وحرك هذا الايمان كامن
الشوق إلى الحج والزيارة ، وسهل ثانيهما بعمله سييلها .

ولقد كان الناس قديما يسافرون الى هذه الربوع لأداء
الفريضة فى رحلة يتعرضون فيها لكل المتاعب والأخطار
يقضون فيها الشهور ، ويستودعون الله أولادهم وآلهم وهم يغلبون
الظن ألا يعودوا ، وكان أهلهم يقدرون هذا ، فكنت ترى
الدموع الغزار منهم فى حفلات الوداع ، وكانوا وهم يمتطون
الجمال ويحملون الزاد كأنما ينتقلون من العمران الى نقيضه ،
ومع ذلك لم تكن تمنعهم هذه المصاعب من الحج ايماننا بالله
وشوقا الى رسول الله ، فمابالنا وقد هان السفر وانتشرت ظلال
الآمن وقصرت الشقة وقلت الكلفة لا نسارع الى التزود من
هذا المتاع الذى له فى الحياة الدنيا لذة وفى الآخرة جزاء عظيم ؟

(١) كتاب فى منزل الوحى وحياة محمد

(٢) طامت حرب باشا مدير بنك مصر اذ ذاك وزعيم النهضة الصناعية والاقتصادية .

يَوْمُ الْإِسْفَرِ

اتفقت كلمتنا على أن نسافر في الثلاثين من شهر يناير، وأن تنقلنا الباخرة المصرية « زمزم » إحدى بواخر الملاحة التي أنشأها بنك مصر، وأعدنا متاعنا ولباسنا وما قد يحتاج إليه المرء من لوازمه الخاصة والإسعافات التي قد تعوزه ويتعذر عليه إيجادها في الطريق. فلما كان اليوم الذي سنسافر في غده جالس معنا بعض أصدقائنا قليلا من الليل ثم انصرفوا، لأنهم كما قالوا - إنما يخلوننا الوقت الذي نجتمع فيه إلى أهلنا وأولادنا يتزود كل منا بنظرة طويلة من سواه، فمن يدرى إن كان في سجل الأيام واللوح المحفوظ ملاقة أخرى بعد هذا الفراق أم لا !

لقد أحدثت هذه العبارات أثرا عميقا في نفوسنا، وبدأنا نشعر باحساس غريب، لا كالذي يشعر به المرء عادة قبيل كل سفر. ولست أدري سبب هذا الاحساس. فان ظروفنا كثيرة قد ألزمتنا مفارقة أهلنا وأولادنا وأقاربنا مدد أزادت أحيانا على الشهر، وما شعرنا قبل اليوم بما نشعر به الآن. فنحن في شوق شديد إلى ارتياد هذه الرحلة نستنجز بها ركننا من أركان الاسلام. وهؤلاء أهلنا والناس من حولنا يغبطوننا على ما نحن راحلون إليه في سبيل الله. ولكننا أيضا في شوق إلى آلنا

وهم مشفقون علينا . وهذان النوعان من الشوق والاشفاق
اختلفا واختلطا ثم امتزجا في نفوسنا حاسة غريبة ليس في قدرة
يراعى أن يترجمها ، ولا في طوق خيالي أن يصورها أو يعبر عنها .
حافز الى السفر ، واشفاق من الرحيل ، وهذا وذاك أمران
ليس من أحدهما بد . ولعل سبب هذا الشعور ما سبق أن
قلته عما عرف عن متاعب السفر إلى الحجاز في الزمن الماضي
حتى رسخت في الأذهان آثار هذه المتاعب ولم يستطع الاعلان
ولا البرهان محوها وإن كان قد خففها ، فلا يزال الناس
يتصورون أن الحج شهور طويلة يقضيها المسافر حتى يفرغ
من أداء فريضته ، تحيط بها أنواع المخاوف والأمراض . أما اليوم
فانك تجد كل شيء إلا الخوف والمرض . تجد الأمن والطب ، وتجد
من الحاجات ما قد لا تعثر عليه في بعض بلاد القطر المصري
نفسه ، أما اليوم فانك تجد راحة في السفر ، وميسرة في الإقامة
ومع ذلك فان الرحلة لا تستغرق بضعة أسابيع لا تتجاوز الخمسة
مهما طالت . فليس هناك في الواقع محل لهذا الاحساس المختلط
ولكنها غريزة النفس والخوف على الحياة وضعف المقاومة
والميل الى الهدوء ، وهو في الواقع احساس تحس به كل صباح
ومساء إذا خرجت من منزلك أو عدت اليه والكر . بشكل
غير ظاهر .

وخرج الأصـدقاء ، وجاء الآل والأبناء وجلست ابنتي الصغيرة إلى جانبي تحديق بصرها في وجهي ، وتصوب عينيها إلى عيني وهي تتأمل في رأسي طويلا ، ثم قالت بسداجة الطفولة وسهولة الفطرة : أفلا تبئت معنا الليلة القادمة ؟ وهل ستكون بعيدا عنا فلا نراك غدا ؟ لا تغب عنا طويلا يا والدي . وقالت اختها الكبرى سننتظر منك كل يوم رسالة ، وقد أودعنا في حافظتك كثيرا من الأوراق والأقلام ، فاكتب إلينا كل يوم كتابا أذكر لنا فيه جميع ما تعمله في ذلك اليوم ، واذكر لنا كيف تنام وكيف تأكل ، ومع من تعيش ، ومن رفاقك الذين تلاقيت بهم وتعرفت إليهم ، وصف لنا الباخرة التي ستسافر فيها ، والجو الذي تسافر فيه والاحساس الذي تشعر به عند مغادرة السويس ، وصور لنا كل ما تراه ، وقال أخى : لا تنس أيضا أن تصف لنا جدة ومكة وعرفات والمزدلفة ومنى والمدينة والطرق الموصلة بينها ، والأماكن التي تراها في هذه الطرق ، وإن استطعت فاكتب لنا شيئا عن عادات أهل تلك البلاد وطريقة معيشتهم وأحوالهم . واجعل وصفك شاملا لما قد تراه من طرائق المعيشة في الطبقات جميعا . وقد أدهشني هذا الطلب وأثار اعتراضى وقلت لهم : لأن أردتم وصفا جغرافيا فهي كتب الجغرافيا بين أيديكم ، وإن أردتم وصفا صوفيا فهي كتب

الدين في متناولكم ، وان أردتم بين هذا وذاك فأمامكم كتاب « في منزل الوحي » فقد وصف الأمر الواقع في روح عالية من اللغة والأدب ، وسحر روحى واسع وشرح طويل . فقالوا إن كتاب هيكىل باشا هو على ما وصفت ، وهو فوق ذلك مكتوب عن الطبقة العليا من الناس للطبقة العليا من الأدباء والقراء . كما أن كتب الجغرافيا إنما هى كتب واصفة لا مرشدة ، وإنما نطلب وصفاً يستطيع المرء اذا قرأه أن يدركه ، وإذا أدركه استرشد به وتتبع خطاه ، ويكون فى الوقت نفسه فى متناول المتوسطين من آلاف الحجاج المصريين إدراكاً ، فهم إذا وضع لهم وصف يتفق مع حالتهم أمكنهم أن يسيروا على هداية .

وقد أعجبتنى الفكرة فعاهدتهم وعاهدت نفسى على أن أضع عن مشاهداتى مذكرات تكون أساساً لعرض هذا الموضوع . جاء الصباح وانصرفنا بطريق البر إلى السويس وتوجهنا إلى الميناء وتخیرنا الغرفة التى سنأوى إليها حيث وضعنا متاعنا ثم توجهنا إلى استراحة الباخرة وجلسنا فيها ، وقد كان الزحام فى الميناء بالغاً أشده لكثرة المسافرين والمودعين ، وكان بينهم كثير من رجال البوليس ، بعضهم ذهب إلى الميناء كعادته وبعضهم ذهب لتحية وزيرين كان أولهما يودع حرمه والثانى يودع والده ، والطبيعة لا تطاوع أحداً ولا تخضع لسلطان أحد ولا ترعى الجماهير ولا ترهب الزحام ، فقد تلبدت السماء بالغيوم

ثم انهمر المطر مدرارا فلم يجامل ولم يدار، واستبشر الناس بالمطر فألا جميعا في السفر، ذلك هو الغيث المنهمر. وظللنا في الاستراحة نتجاذب الأحاديث من مودعيننا حتى دق الجرس ونادى المنادى لغير المسافرين أن يغادروا الباخرة، لأنها على وشك الرحيل. وقد رجوناهم أن يجيبوا نداء المنادى فتزل منهم من أطاع ولكن أخوى تباطأ في النزول متلبسين الأعذار متعللين بأن هذا هو التنبيه الأول، وأن كثيرا من المودعين الآخرين لا يزالون جلوساً بالباخرة، بل إن بعض أمتعة الركاب لا تزال على الرصيف، والحمالون يرفعونها، ولا يزال في الوقت متسع. وما كان لهذه الأعذار في ذاتها شيء من الوجاعة، بل هي منتحلة والحقيقة في أمرها إطالة البقاء معنا كل ما يستطاع، وكان هذا يتفق مع رغبتنا، ولكن لا بد مما ليس منه بد. وهكذا لم ينزلا الا بعد اقناع طويل وعناق وتقبيل صاحبهما بكاء ودموع.

وغادر الجميع الباخرة ووقفوا على الرصيف ووقفنا على سطح الباخرة ننظر إليهم وينظرون إلينا، نلوح لهم ويلوحون لنا، ويحيوننا ونحييهم حتى تحركت الباخرة فأخرجنا المناديل نتبادل الإشارات بعد أن بعدت الأيدي، ولم يحل بيننا وبينهم ذلك المطر الغزير الذي غمر جميع الواقفين زمنا كبيرا، فلم نهرب

منه ، وهكذا استمرت هذه الاشارات حتى استحالت رؤيتنا
وغاب كل منا عن الأنظار .

ثم انصرفنا للطواف في انحاء الباخرة نستكشف أمرها
ونتعرف إلى سكانها ، وكان أول من تلاقينا معهم ثلاثة من رجال
المحاكم تعرفنا إليهم ، فكان الأمر موضع العجب وقلت لهم
من فرط سرورى بلقائهم : هل كتب على أن أعيش دائماً
في المحاكم حتى فى رحلتى إلى الحجاز ، ولست أخفى اننى شعرت
نحوهم بمحبة سريعة ، وألفة كأنها ألفة السنين مع اننا لم يسبق
لنا تلاق ، فهل كان السبب أننا غرباء جميعا وكل غريب للغريب
نسيب ؟ لكن الباخرة ملأى بالغرباء ، فلماذا اختص الائتلاف
والحب رجال المحاكم ، أم أن للزمانة ووحدة الدراسة أثرها
فى إيجاد الجاذبية بين العمل الواحد الذى يحبونه ويعشقونه ،
ولعل هذا هو السبب الوحيد فى الائتلاف السريع .

وسرنا جميعا وطفنا بالباخرة ، وشاهدنا مسجدها وغرف
الطعام فيها واستراحتها ومستشفاهها وصيدليتها ، وزرنا طبيبيتها
« رشدى وشكرى » وصالون الخلاقة فيها ، فكانت مدينة كبيرة
فى باخرة ، كل غرفة فيها منزل صغير مجهز بالفراش والنور والماء ،
وقد يغنيك عن طول الوصف أن تعلم أن فيها كل ما يلزمك
وما تشتهي ، وعلى رأسها مدير رقيق المشاعر حريص على راحة

المسافرين ، مسارع إلى اجابة مطالبهم وسد حاجتهم . ولقد لقي
الركاب من رعاية طبيبها ما يلقونه من رعاية الطبيب الخاص
فضلا عن أن الأدوية تصرف للمرضى بغير مقابل . ثم جلسنا
نتحدث فيما نحن فيه وما سنكون فيه وقد صحا الجو ومالت
الشمس للغروب واختال احمرار الشفق بزرقه ماء البحر
والبخرة تسيرين هذا الشعاع البهيج والمنظر الجميل الذي يحلو
للشعراء وصفه والابداع فيه .

في عرض البحر من السويد^{٢٠} إلى جدة^{٢١}

كان مقررا أن نصل إلى جدة بعد ثلاث ليال نقضيها في عرض البحر، ولكننا علمنا أن إدارة الباخرة قررت الإسراع بنا واختصار الوقت ليلة كاملة لنصل إلى جدة في اليوم الأول من شهر فبراير. فأتاح لنا ذلك أن نقضى زمنا نستمتع فيه بذلك المنظر البهيج، منظر الشمس وشيك مغيبها تبسط شعاعا ذهبيا على ماء البحر فتجعل منه ذهباً يتأرجح ويتماوج متشكلا تارة بلون الشفق وتارة بلون الشمس اذا ألفت نضارها لتترك الأحياء مهوورين بسحره وجماله. وقد زاد في بهائه ذلك التدرج المنتظم في انسحاب الشمس تحت السحاب يطويها في ردها حتى يغيبها عن الانظار، ولو أنك لاحظتها وهي تبتعد رويدا رويدا تغمرك الرغبة في بقائها، وتزداد هي دلالا وانسحابا وأردت أن تنظم شعرا في وصف هذا المنظر فما أبدع القصيدة التي تصور هذا الجمال، جمال الطبيعة في صفوها، وكل شيء فيها ينطق بقدره الخالق العظيم جل شأنه وتعالى أسماؤه وصفاته.

وهرعنا مبكرين إلى حجراتنا لنستريح من عناء ما بذلنا من الجهد في يوم السفر، واستيقظنا قبل فجر اليوم الحادي والثلاثين من شهر يناير فوجدنا أكثر الركاب وقد قاموا يستعدون للصلاة

يبادلونك التحية أينما وجدوا كأنما ربطت بينك وبينهم أو اصر
 الصلات العتيدة. وكان الجو بارداً لم يسمح لنا بالارتياض
 على سطح الباخرة فجلسنا في استراحتها نتجاذب أطراف
 الأحاديث إلى أن جاء وقت الإفطار فتناولناه، وكان النهار قد
 نشر دفاؤه وضيائه، فأخذنا نتنزه ونتنقل من مكان إلى مكان.
 وكنت قد ظننت قبل سفري أنني سأجد من وقى ما أنفقه
 في المطالعة فحملت معي كثيراً من الكتب، ولكن تبين
 لي أن المشاهد التي كانت تتجدد كل لحظة لم تدع للقراءة سبيلاً
 وكان بين المسافرين جماعة أدوا فريضتهم قبل هذا العام فأخذوا
 يصفون لنا البلاد، فحدثونا كثيراً عنها. أنست إلى واحد
 منهم فسألته عن سبب عودته إلى الحجاز مادام قد أدى الفريضة
 فسكت وقال: إني أفضّل أن تسألني هذا السؤال عند رجوعنا
 إن شاء الله سالمين، وإني لعلّ ثقة أنك حينئذ ستعزم العودة
 مرارا. وقال لي صديق آخر: حججت في العام الماضي، وكنت
 تواقا إلى الحج مرة أخرى، ولكني لم أعقد العزم، إذ الموظفون
 لا يملكون أوقاتهم، وقد لا توافق الحكومة على إجازة أخرى
 خارج القطر إذا لم تسمح حالة العمل بذلك، ولكني ما كدت
 أقرب من موسم الحج حتى اشتعل قلبي ولعاً بالطواف حول
 الكعبة والوقوف على قبر الرسول الكريم الأمين، أناجي
 حضرته في خلوته، واستمتع بهذا المشهد الحبيب إلى نفسي

مصارعت في إعداد ما يلزم من المال وذهبت إلى رؤسائهم
فاستأذنتهم ، وكنت مدفوعا بحافز غريب : كنت كلما رأيت
أحدا يستحضر جواز السفر دب في نفسي ديب الغيرة والغيرة
وقال تاجر : إن هذه هي السنة الثالثة عشرة من السنين التي مضت
ولم أتخلف فيها عن الحج عاما واحدا ، فقد بدأت تجارتى رقيق
الحال ونذرت للرحمن أن أحج بيته إن توفرت لدى نقود أنفق منها
على نفسي وأتصدق منها على الفقراء ، وما مضى عامان إلا وكان
المبلغ في يدي فأوفيت نذري وأديت الفريضة ، فلما عدت
إلى مصر وثابرت على عملي زاد مالي ، فذكرت قول الله تعالى
« من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » وإنما يترك المال بالصدقات .
فاعترمت أن استديم رحلاتي إلى الحجاز مادمت حيا أنفق
في سبيل الله من فضل الله ، وكلما تكررت حجي تضاعف كسبي
حتى صرت أملك بضعة آلاف من الجنيهات من تجارة بدأتها
ببضع مئات من القروش . وقد وفقني ربي ، فما أخلفت هذا العهد
والميثاق . فعقب على ذلك الحاج الذي سألته أولا قائلا : ليس
لي بعد ما سمعت أن أزيد شيئا فإن جاذبية روحية ستجس أنها
تدفعك إلى العودة ، وإنه خير لمن يسافرون خارج القطر أن
يجعلوا أسفارهم إلى بلاد الحجاز يؤدون فريضة عليهم ، ويفيدون
أهل بلاده ويتمتعون مع ذلك بمناظر طبيعية غاية في الجمال .

وجاء الظهر وموعد تناول الغداء فتناولناه ثم ذهبنا نستريح قليلا ثم ننصرف إلى الحمامات لنستعد للإحرام فنصل إلى رابغ قبل المغرب وهي المكان الذي يجب الإحرام عنده لمن يقصد مكة، فمن أراد أن يبدأ بزيارة المدينة المنورة فانما يؤجل إحرامه حتى يعود منها فيحرم في طريقه إلى مكة من ميقات أهل المدينة. وقد صرفنا قبل راحتنا وقتا طويلا جلسنا فيه إلى أحد العلماء فجعل يحدثنا عن الحج وفرضه وحكمته، وعن الإحرام وواجباته وممنوعاته، وكان حديثه طيبا، وكانت آذانتنا واعية فعلى رغم أن كثيرا مما قاله كان في مذكراتنا إلا أن الحديث عن الحج يحلو خصوصا في طريق السفر إلى أداء الفريضة قال تعالى «ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا» وسئل النبي عليه الصلاة والسلام: أى الأعمال أفضل قال إيمان بالله ورسوله، قيل ثم ماذا قال جهاد فى سبيل الله قيل ثم ماذا قال حج مبرور. وقال أيضا أفضل الجهاد حج مبرور وقال سيدنا عمر: شدوا الرحال فى الحج فإنه أحد الجهادين، واستمر العالم فى محاضراته فذكر أن شروط الإحرام الغسل بنيته وإزالة الشعر وتقليم الأظافر وقص الشارب ولبس الرداء على الكتفين وكشف الرأس ولبس حذاء خاص فى القدمين. ومتى نويت الإحرام فالتزم حدود قوله تعالى «الحج أشهر معلومات» فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج»

ولاطيب ولا نساء ولا مخيط ولا محيط من الثياب . وبعد أن انتهى العالم من محاضراته تقدم اليه كثيرون يستفسرون منه عن بعض التفاصيل فكان يجيبهم عما يسألون ، وفسر لهم متى وكيف يكون الفداء والهدى وما يجب على الحاج عند العجز عن الإحرام .

ها نحن قبيل المغرب ، وهذا موعد الاحرام ، وحين ذهبت الى استراحة الباخرة وجدتها غاصة بالحجاج وهم جدلون فرحون يذكرون الله ويسبحون بحمده فما رأوني حتى أقاموا عاصفة من التهليل والتكبير هي تحية المحرمين بعضهم لبعض يستعيضون بها عن السلام وهي : « لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » فاذا أقبلت عليهم أو أقبلوا عليك فهذه تحيتك وتحيتهم . وهكذا يرددون هذه التلبية كلما أقدم عليهم قادم أو سار من بينهم أحد لا يعرفون في هذا الوقت غير التلبية لله صاحب العزة والجلال .

وقضينا ليلة ساهرة ممتعة نستمتع الى الاحاديث حينما والى خريف الماء حينما آخر حتى جاء موعد النوم فقمنا ، ولما تنفس الصبح صعدنا الى سطح الباخرة ننظر الى جدة علنا نراها من بعيد . وتقابلت صدفة مع قبطان الباخرة فخياني على غير معرفة ، ورددت تحيته بالانجليزية وأقبل على يحدثنى ووقفنا قرب باب الباخرة الذى سينزل منه المسافرون وجعل يقارن بين هدوء البحر الاحمر وأمواج البحر الأبيض وبين الطريق

الى الحجاز والطريق الى أوروبا وإحساس المسافرين الى مكة
والمسافر الى مرسيليا . وقال لى انه لاحظ ان الفكرة التي
تسيطر على المرء في سفره تغير من حالته حتى لا كاد أعتقد أنها
تغير من مسلكه ، ولذلك نجد المسافرين الى الحجاز رجلا واحدا
وروحا واحدة ونفسا واحدة وجماعة واجماعا ، كلهم رضى
مسرور ، أما المسافرين الى مرسيليا فلكل منهم شأن يغنيه ،
فلا تجمعهم غير صداقة البعض منهم بالبعض ، وإنك لتجد بينهم
الفرح والعباس والمسرور والمحنون والراضى والغاضب كل
يتأثر بمشاعله وأهوائه الخاصة ، وانتقلنا إلى الحديث عن أخلاق
المصريين فأخذ يمجدها ، وعن عاداتهم فأخذ يحسنها فشكرته
وذكرت له أنى أعتبر ما جرى على لسانه مجاملة لمصرى فى أهله ،
ورجوته أن يشرح لى ما يعرفه عنا لعلمنا نستفيد من نقده ، فأكد
لى بلسان الواثق الطيب القلب أنه يعنى ما يقول ، وأنه يقول الحق
فرددت له التحية ووجهت له شكر المصريين وذكرت له ما يمجّدونه
من صفاتهم وأخلاقهم ، ثم استأذنته وانصرفت لأتريض
فى الباخرة ، حتى التقيت بمديرها « المسيرى بك » والتقى بى مع
جماعة من الحجاج فشكرنا له ما أقينا من عنايته وعناية شرّ كته
برا حتنا أثناء السفر ، وكانت الساعة العاشرة قد اقتربت وبدأت
ثنا جدة والبواخر الواقفة فى عرض البحر ، وشهدنا هياكل
الباخرة كانت قد احترقت وبقي حطامها وهالنا هذا المنظر وأخذ

منا الهلع أن تصورنا أنها احترقت وفي جوفها آباء وأولاد،
 وشيب وغللمان، لم يجدوا لهم مفراً من الموت وهم قاب قوسين
 أو أدنى من بلاد الرسول، وطمأننا أحد الركاب إلى أنها احترقت
 وهي خالية من الرواد، فسرى عن نفوسنا، ووقفت الباخرة
 بعيدة عن جدة، وسررنا لمنظرها فإنك تراها على شاطئ البحر
 كالبيوت المتناثرة يكسبها البحر من جماله جمالا، وتكسبه من
 وجودها بهاء، وأن أكثر المناظر سحراً جمال البحر في اتصاله
 بالبر، ولا تدرك بهاء للمنازل أجمل من بهائها على شواطئ
 البحار والأنهار. ونزلنا من الباخرة إلى زورق يقلنا إلى الميناء،
 ذلك أن ميناء جدة غير معدة لرسو البواخر، ولا أنكر عليك
 أن الانتقال من السفينة بالزوارق إلى الميناء متعب حقا، وقد
 يتعرض فيه المرء لبعض ما لا يحب، وقد حدث أن جلس قاض
 مصرى فى زورق واحتك به جانب زورق آخر فجرحت يده
 وهرس أصبعه، وظل طوال مدة الحج يعالج يده، وإنك لتتصور
 أكبر العناء إذا أدركت أن حمولة السفينة ثمانمائة وألف راكب
 بأمعتهم وأصحاب الزوارق يتنافسون فى الاقتراب من الباخرة.
 وقد حدث أن وضع متاعى خطأ فى زورقين غير ماركبته
 ووصلت إلى الميناء بدونه وظللت فى انتظاره مدة طويلة، ولهذا
 اقترح أن تنشئ حكومة الحجاز ميناء ترسو أمامه السفن فى مكان
 صالح أو تعمل وصلة برية بلسان داخل البحر يثقل الركاب

من طريقها كهذه الوصلات البرية الموجودة في الطور . نعم ان
الحجاز في حاجة الى اصلاحات أخرى وتلك بدورها محتاجة الى
المال ، ولكن عناية الحكومة من جهة ومعاونة الدول الاسلامية
كذلك من جهة أخرى كفيلا ان يانجاز الاصلاح في وقت قصير .

ولما وصلت الى أمتعتي وجرت عليهما مراسم الجرك غادرت
الميناء بين آلاف من مختلفي الجنسية : هنود وجاويين ومغاربة
ودول أخرى أقبلتهم البواخر الراسية فذكرت قوله تعالى
« وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين
من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام
معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا
البائس الفقير ثم ليقضوا نفقاتهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا
بالبيت العتيق » ولما غادرت الباخرة نزلت في فندق جدة .

في جَدَّة

كان الوقت ظهرا عند ما وصلنا إلى ميناء جدة - وإن شئت
فقل ميناء مكة - وكان الجو حارا يماثل جو مصر في مايو، وكنا
نحمل ملابس الشتاء إذ لم يكن في الظن أو التقدير أن يكون
الفرق هكذا شاسعا، وأن يكون الجو هكذا حارا، ونحن
في اليوم الأول من شهر فبراير .

الله أكبر ! لبيك اللهم لبيك :

وصلنا إلى جدة ، ولا تزال ألسنتنا تنطق مترجمة عما يملأ
نفوسنا من السرور والمرح بالتهليل والتكبير ، ولم يشغلنا
عن ذلك انتقالنا من الباخرة إلى الزورق ، ولا البحث عن أمتعتنا
وانتظار وصولها إلى الميناء ، ولا مقابلة وكيل المطوفين واتخاذ
المراسم الجمركية .

ومرفأ جدة هو مدخل بلاد العرب من ساحل البحر الأحمر
وهو طريق الوصول إلى مكة مسقط رأس النبي العربي الكريم
الذي أرسل للناس كافة هدى ورحمة ، ومبعث النهضة العربية
القديمة ، ومهبط الوحي في بدايته .

تلك هي بلاد العرب التي سيطرت زمنا ما على ملك واسع

الأطراف بعيد الأكفاف ، والتي نشأت فيها الأمة العربية أقدم الأمم على الزمان وأعرقها على الأيام وأطولها خلودا ، وأوسعها سلطانا ، وأسعدها حظا وأشدّها تمسكا بالرجولة ، واستتمسكا بالبطولة ، وأصلبها عودا وأقدرها على الصبر ، واحتمل الأحداث .

تلك الأمة التي لم يخلد أهلها إلى النعيم ، ولم يتعلقوا بأهداب المدنية ، هؤلاء الرجال المتزهدون في طعامهم المتقشفون في لباسهم ، الذين لم يعنهم من الدنيا غير الله والحق والتقوى بذلوا أرواحهم رخيصة ، وسكبوا دماءهم كريمة في سبيل المحافظة على الشرف والكرامة ، وإعلاء كلمة الحق والدين .

الأمة العربية التي من قبائلها قريش والتي نشأ في ربوعها عبد المطلب بن هاشم والد عبد الله وجد رسول الله الذي حكم في مكة تسعة وخمسين عاما رفع فيها شأنها وصدها العوادي حتى كان عام الفيل وسوّى « أبرهة » لنفسه أن يغزو مكة وأن يهدم البيت العتيق فجعل الله كيده في تضليل وأرسل عليه وعلى جنده طيرا أبايل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول .. فعاد « أبرهة » أدراجه مع ما بقي من جيشه ولم يعيش بعد ذلك .

وهكذا كان عام ٥٧٠ م عاما مباركا ، هزم الله فيه جيش

الحبشة وأبادهم مع فيلتهم ، وكان عاماً مباركاً ولد فيه محمد عليه الصلاة والسلام .

بلاد العرب مبعث المعجزات المحوطة بالأسرار الناطقة بقدرة الخالق الواحد القهار ، يهبط إليها كل عام سبعون ألفاً أو يزيدون يحجون بيت الله ، ويؤازرون ثلاثة ملايين من الانفس لا عيش لهم إلا ما يكسبونه في موسم الحج ، تلك البلاد التي هاجر إليها ابراهيم بزوجه وابنه اسماعيل وترك اسماعيل مع أمه وليس معها من حطام الدنيا سوى دعاء صالح من نبي صالح لإله قادر « ربنا انى أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شيء فى الارض ولا فى السماء الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق ان ربى لسميع الدعاء »

هذا هو الدعاء الذى خلفه ابراهيم لولده اسماعيل وزوجه هاجر ، وهذا هو الدعاء الذى استجاب به فاجعل الحج من أسباب الرزق لهؤلاء الأبرار ولمن جاورهم من عباده وهذا هو الذى كان من آثاره عمران تلك البقاع الطاهرة . نحن اذن فى مدخل البلاد المقدسة ، فجدة بلد مبارك ، لأنه السبيل إلى هذه البلاد .

ويخيل إلى أن ثغر جدة لم يتغير فيه شيء من حيث شكله من زمن بعيد ، فإن ما كتب عنها من سنة ١٨٩٦ لا يكاد يختلف عما شاهدته فيها ^(١) فهي في وصفها بلدة تقع على البحر الأحمر تحيط بها الاسوار من كل ناحية ، متوسطة الحجم مؤلفة من عدة منازل يبلغ ارتفاع بعضها خمس طبقات على شوارع متعددة لا هي بالضيقة ولا بالواسعة ، وكل شوارعها أرضية معني بعض الشيء بنظافتها ، فيها المدارس والمتاجر المختلفة : شارع التجارة فيها أشبه بعض الشبه بشارع الغورية بالقاهرة كما أن شكل المنازل في مظهرها يشبه منازل ذلك الشارع من حيث بنائها ونوافذها ، بها مقاه كالمقاهى البلدية الكائنات بالاحياء العريضة بالقاهرة تتشابه معها في الأثاثات وأنواع المشروبات التي تقدم فيها ، والاضاءة فيها ضعيفة وتوجد بها أنابيب للمياه وليس بها تيار كهربائى .

وقد يهملك من ذلك كله أن تعرف أنها بلدة كبيرة بها تجارة واسعة وبها كل ما تحتاج إليه من طعام وشراب ودواء ولباس . ولا يهملك أن تعلم ان كان بها ثلاثة آلاف منزل

(١)راجع في ذلك ما كتبه محمد باشا صادق سنة ١٨٩٦ و ابراهيم باشا رفعت سنة ١٩٢٥ وسيد بك البتانونى سنة ١٩١٠ في دليل الحج ، و مرآة الحرمين ، و الرحلة الحجازية ، على التوالى .

كما ذكر صادق باشا ، أو ثلاثة آلاف وثلاثمائة كما ذكر رفعت باشا
أو ثلاثة آلاف وخمسمائة كما ذكر البتانوني بك .

وإذا نزلت إلى جدة فلك أن تستريح في أحد فنادقها
أو أحد منازلها ، ففيها فندق للحكومة وآخر لبنك مصر ، وهي
تعرف الفنادق من زمن بعيد ، ولذلك أدهشني ما كتبه الاستاذ
عبد القادر المازني في رحلته اذ قال : إنه ليس في جدة فنادق
ينزل إليها القاصدون ، وإنما ينزل الناس في بيوت الاهالى فمن شاء
استأجر منزلا بأسره ، ومن كان لا يسعه ذلك قنع بغرفة مؤثثة .
فالواقع أن الفنادق بجدة قديمة وموجودة قبل رحلة الاستاذ
المازني ، ولعله وقد كان ضيفا على الحكومة لم يكن يعنيه كثيرا
أن يبحث عن الفنادق .

ويؤكد وجود الفنادق في جدة قبل وبعد رحلة المازني
ما كتبه محمد صادق باشا في كتابه « دليل الحاج » سنة ١٨٩٦
فقد قال : « بجدة خمسة جوامع سوى ثلاثين زاوية ومحاريبها
منحرفة من الشرق الى الشمال بثلاثين درجة ، ووابور طحين
و ٣٠ خانا ولوكاندتان ومكاتب تلغراف ... »

كما أن رفعت باشا ذكر أن « بها حماما واحدا ونزليين
« لوكاندتين » وأربعين قهوة وصيدلية . » وقد أشار لبيب بك
البتانوني ايضا الى وجود فندق بجدة .

ولكى أقرب إلى الذهن شكل جدة لا بأس أن أشير إلى ما كتبته عنها لبيب بك البتانونى فى الصحيفة السادسة ، من رحلته الحجازية إذ قال : إن منازل جدة مبنية بالحجر الجبلى الذى يستخرجونه من الجبال القريبة أو الحجر المائى الذى يقطعونه من شعاب البحر . ومساكنها كمساكن مدن الحجاز « مكة والمدينة » وعى أشبه بمساكن مصر فى عهد المماليك « وفى سوق السلاح كثير منها » يعنى أن بها غرفا كبيرة ولو اوين واسعة ذات سقف عالية ونوافذ طويلة عريضة على شكل المشربيات يسمونها الروشن « أى المناور » ومصاريع نوافذها مصنوعة على خرار النوع المسمى « الشيش » الخ

وقد قال لبيب بك البتانونى إن شوارع جدة لا نظام فيها وأستطيع أن أقرر اليوم انها أكثر نظاما ، وأنها وإن لم تكن مرصوفة فإنها معتنى بعض الشئ بنظافتها ، كما أن هناك بعض المباني الحديثة تماثل المباني المصرية فى الأحياء العصرية بالقاهرة ومن ضمن هذه المباني ما يشغله فندق مصر بجدة ، كما أن مبنى السفارة المصرية ليس من النوع العتيق .

كان علينا أن نسافر إلى مكة يوم أول فبراير الذى وصلنا فيه إلى جدة ، والمسافة من جدة إلى مكة بالسيارة لا تستغرق أكثر من ثلاث ساعات مهما طالت ، فلو أننا تحررنا من

جدة في الساعة الأولى بعد الظهر لوصلنا الى مكة في الساعة الرابعة ، وكان ذلك هو تقديرنا .

وقد قابلنا وكيل المطوفين وأعربنا له عن تلك الرغبة وطلبنا اليه إحضار سيارة تنقلنا ، ولكنه عرفنا أن ذلك لن يكون قبل الغروب ، لأن عليه أولاً أن يحضر الحجاج المصريين الذين وصلوا ، ثم يذهب الى بنك مصر ليحاسبه على أجور السيارات قبل قيامها من السويس . وقد حاولنا أن نقتنعه أن أجر السيارة ثابت التحصيل في جواز السفر ، ولكنه أبى أن يقتنع ، فانصرفنا حتى يتم اجراءاته ، وذهبنا الى الفندق فاسترخنا قليلاً ثم خرجنا نطوف جدة وتعرف أحوالها وشؤونها وكان أول واجب في نظرنا أن نزور ديارنا المصرية هناك .

أرسلنا في طلب عربية نطوف بها المدينة ، فجاءتنا عربية مقفلة «من نوع ما يسمى الكوميل في العرف الدارج» يحرها حصان واحد ، ضئيل الجسم هزيل تبدو عليه أمارات الجوع وركبتها مع صديق لى وتوجهنا فوراً الى دار السفارة المصرية .

وهي دار أنيقة ذات طابقين : الأول منهما يرتفع عن الأرض بضع درجات ، والثاني له سلم من صالة الطابق الأول ، ويوجد بالطابق الأول مكان موظفي السفارة وعيادة الطبيب المصري الملحق بها كما يوجد بالطابق الثاني مكتب القائم بأعمال السفير

وسكنه، ولم نجد الياس بك اسماعيل القائم بأعمال السفير إذ ذاك،
لأنه كان غائبا في مكة يستطلع أخبار من سبقنا من الحجاج،
ووجدنا موظفي السفارة قائمين بأعمالهم فأحسنوا استقبالنا وهم
جد فرحين مسرورين ببقاء أهلهم ومواطنيهم. وإنك لتستطيع
أن تتصور كم تلقى من السرور إذا تقابلت في بلاد الغربية بواحد
من أهل وطنك. وعلى قدر ما تتصور من الغبطة يمكنك أن
تدرك كيف قابلنا كل منهم وكيف عرض علينا خدماته ومعونته
وقدموا لنا القهوة المصرية والماء المشلى فشكروناهم ثم استأذنا
في زيارة بنك مصر فأرشدونا إليه. وهو بناء أحدث من بناء
السفارة ومجاور لها، ويشغل الدور الأول من عمارة فندق بنك
مصر الذي تتوافر فيه كل وسائل الراحة، وقد استقبلنا موظفو
البنك بمثل ما استقبلنا به موظفو السفارة.

لقد كان سرورنا بالغاً، وكانت سعيدة تلك اللحظات التي
قضيناها في ديارنا وبين أهلنا في جده، وتلك آثار الجهود الجليلة
التي بذلتها الحكومة المصرية في إنشاء سفارة لنا فيها و آثار
الجهود القومية التي أقام بها بنك مصر فرعاً له وفندقاً
فيها. لم نكن غرباء إذن في بلاد الحجاز، ولم نشعر بالغربة يوماً
واحداً ولولا أعمال ومصالح وأرزاق تقتضيها سرعة العودة
إلى مصر لما شعرنا بوحشة أو حاجة إلى الرجوع السريع.

ر كبتنا عربتنا ثم طفنا حول المدينة من داخل أسوارها
التي تحجب منظر البحر عن الشوارع ، ولم يمنعنا الحر عن هذا
الطواف وقد روحنا به عن نفوسنا ، فالبلد « خفيفة الروح » على حد
هذا التعبير

ثم استوقفنا الخوذي عند أحد المقاهي ونقـدناه أجره
وانصرف وجلسنا وطلبنا الشاي « وهو الشراب الشائع هناك »
وطلبنا بعض الماء لنشربه وإذا بالندل ينادى زميله ويطلب لنا
شاي أسود وشربة . وقد أدهشنا هذا الطلب ، فما نحن بحاجة الى
شاي أسود ولا إلى شربة ، ولكنه عاد إلينا فأفهمنا أنهم يسمون
الشاي الأحمر هناك شاي أسود ويسمون الماء « شربة » وهكذا
أحضر لنا ما طلبنا وقد ضايقنا في جلوسنا بعض أتربة تتصاعد
من الطريق ، كما أساء الى عواطفنا منظر المتسولين وكثرتهم :
مئات من الأطفال والنساء والرجال يكادون يكونون في حكم
العراة يسود أجسامهم عدم النظافة يتسولون في الطريق العام .
وكثرة المتسولين هناك أمر طبيعي يتفق مع حالة البلاد الآن
فهم في حالة من الفقر والحاجة تدفعهم الى التسول ، وقد أطمعهم
في ذلك عطف الحجاج عليهم واعتبارهم العطاء قربانا لله تعالى
في تلك البلاد . يضاف الى ذلك ان الحجازيين لا صناعة لهم ،
بل هم عاجزون عن إدراك الصناعة وكنهها . ولذلك تكاد

لا يجد بين الحجازيين منهم غير بعض طبقات محصورة في الموظفين والتجار وبعض الملاك.

ولو عنيت حكومة الحجاز بأمر هؤلاء لاستطاعت أن تخلق منهم صناعات لا يكونون عالة على أحد، ولا استطاعت أن تنتفع من صناعتهم بما يمكن أن تحصله من ضرائب. وأعتقد أن من أول ما يمكن أن يشتغلوا به بناء السفن ودبغ جلود الاضاحي وتجفيف لحومها وما إلى ذلك من الصناعات التي تناسب جو بلادهم وطبيعة أرضها وازراقها كاستخراج اللؤلؤ من البحر.

إن الحجاج على اختلاف أجناسهم يذبحون في أيام العيد نحو نصف مليون من الخراف لها لحومها ولها جلودها، فتصور أن أغلب هذه اللحوم لا ينتفع به، لأنها أكثر من حاجة الحجاج والسكان، كما أن كل هذه الجلود تضيع هباء لا يستفاد منها وهي ثروة لا يستهان بها سيما إذا ضيف إليها ما يذبحه أهل البلاد خلال العام وفي المواسم.

الساعة الآن السادسة مساء بالزمن الأفريقي، وهو غير معروف في الحجاز، لذلك أدرنا عقارب ساعتنا، فنحن الآن في الساعة الأولى مساء « بعد المغرب بساعة » وهذا هو المطوف قادم يطلب إلينا أن نستعد للسفر إلى مكة. فالسيارة على وشك الوصول إلينا لتضمننا إلى ركابها.

لكل حاج مطوف ، ولا يصرح بالنزول الى جدة لمن لا مطوف له ؛ ولذلك تحصل أجور المطوفين في مصر مقدما قبل السفر ، كما تحصل أجور السيارات . ولكل مطوف مقر في جدة يمكن التوجه اليه والاستراحة فيه نظير أجر زهيد لمن لا يرغب في الذهاب الى الفندق أو لمن لا يجد محلا خاليا فيه لكثرة النازلين في بعض الأحيان . ولقد كان من حسن حظنا أن وجدنا محلا خاليا في فندق الحكومة الحجازية حيث تتوافر سبل الراحة . وهو فندق منظم يتألف من ثلاث طبقات ، وبه صالون جميل متسع مفروش بالأبسطة الفخمة ، ومطل على البحر ، به مسرة « تليفون » غير مسرة الفندق نفسه ويتبعه مقهى صغير لمن يريد الجلوس فيه ، وبهذا المقهى آلة للإذاعة « راديو » ولا يقل عن فندق مصر الحديث سوى أن بالأخير تيارا كهربيا يولده مولد « موتور » خاص ، وهذا يكثُر في أغلب المنازل الكبيرة بجدة ، فضلا عن حدائقه مبناه . أما فندق الحكومة فيضاهى بالمصاييح « الكلوبات » البلدية التي يوجد واحد منها في كل غرفة .

وصلت السيارة وحملنا عليها متاعنا وجلسنا في انتظار قيامها طويلا ، وسألنا عن سبب هذا التأخير ، فقالوا إن وكيل المطوفين أمر بإحضار السيارات ، ولكنه لم يعط الإذن بقيامها ، ولا بد أن يكون هذا الإذن مكتوبا . ثم جاء الإذن ولكن السيارة

ظلت واقفة ؟ لماذا ؟ ! لأنه لا بد مع هذا الإذن من أن تكون لدى السائق أوراق بعدد الركاب تدل على أن الركاب دفعوا ضريبة المرور ، وهذه الضريبة تحصل أصلاً في مصر مع أجور السيارات ، وهي ما يسمونه هناك « بالكوشان » وعند ما تتم هذه الإجراءات تتحرك السيارة قاصدة مكة .

تمت هذه الاجراءات حيث كانت الساعة الرابعة ليلاً « عربى » وجاء السائق وأخبرنا أنه مستعد للقيام فقمنا الى السيارة وركبناها .

وبدأ السائق يسيرها ...



مِنْ جِدَّةِ إِلَى مَكَّةَ وَمِنْ الدَّارِ

إِلَى الْحَرَمِ

كنت أظن أننا سنستمر في سيرنا حتى نصل إلى باب الحرم أو على الأقل إلى حيث نقيم بمكة . ولكن السائق طاف بنا في شوارع جدة ثم وقف ! هذه هي دار البوليس التي نبرز فيها أوراق الكوشان !

ونزل السائق وغاب فترة حتى أتم عمله ، ثم عاد وانطلق بنا إلى الباب الشرقي للمدينة ، وهو الباب الموصل إلى مكة من بين تسعة أبواب في سور جدة الخمس الاضلاع ، وهناك استوقفه رجال البوليس الواقف بباب المدينة حتى اطلعوا على الأوراق وصرحوا لنا بالرحيل .

سرنّا بعد ذلك في طريق متسع هو في الجملة بين وهلي وخجري ، فتارة نرى أخاديد الرمال ، وتارة نرى الجبال ، وقد رسمت السيارات لمسيرها طرقاً خاصة ولكل من العجلتين مجرى تسير فيه ، فلذا أرادت السيارة أن تثقل منه فلا بد من إحداث حركة لها أثرها في رموس الركاب خصوصاً في الاماكن التي لا رمال فيها أو بها رمال وكميات من الحجارة بين كبيرة وصغيرة قد ترتطم للسيارة في إحداها ، وقد تصطدم بأحدها فجأة ثم تنزل كذلك فجأة فتحدث

انقلاباً بين الركاب في داخلها ، وقد يرتطم رأس الواحد منهم بسقف السيارة فيجرحه .

ولم يحصل لنا لحسن الحظ شيء من ذلك ، فقد كان سائقنا حريصاً جداً وماهرأً اعتنى بنا وبراحتنا بمقدار حذقه من جهة ، وعنايتنا به من جهة أخرى ، لكن كثيرين قد حصلت لهم حوادث سمعنا بها فآلمنا ذلك .

سرنا في طريق متسع محاط بالجبال والرمال في مواضع مخيفة ، وكانت السيارات فيها كثيرة بين ذاهبة وآية ، وكانت الذاهبة ملأى بالركاب ، أما الآية فكانت عائدة لإحضار ركاب من جدة .

وكان الطريق مع ذلك مكتظاً بالراجلين المشاة ، وقد شاهدنا واحداً يركب الحمار ، وواحداً يركب عربة ذات عجلتين يجرها جواد واحد .

هؤلاء المسافرون جميعاً المدفوعون بحب الله ، القائمون لتأدية فريضة ، الساعون إلى بيته ، المحتملون في ذلك أسباب الغربة ومشقة الطريق ، كل هؤلاء عاكفون على التلبية مستمرون في الحمد لله والثناء عليه .

ولقد يهرك الإخلاص ومظاهره ، والتفاني في العبادة وأثره عند ما تقع عينك على شيخ نيف على التسعين أو المائة أضناه الزمان ، وهو يسير على قدميه ليقطع هذه الأميال ، خلوا من الطعام

والشراب ، مأخوذا بقوة روحية حملته من بلاد بعيدة ، وهو يمني نفسه بالحياة ! حياة الدين والدنيا .

نعم لا حياة الا برضى الله ! أما أولئك الذين شغلهم ملاهى الدنيا عن جد الآخرة فقد خسروهما معا .

إن فى العمل للباقية حياة دنيوية لذيذة هائلة ، فان العامل لها لا يعوزه مرح ولا صحة ولا علم ولا مال . إذ العمل للآخرة لا يمنع النفس من أن تنال حظها من اللهو البريء ! وليس العمل لله بعائق عن الجد فى الدنيا للحصول على ثمارها الحلوة الشبيهة الشريفة .

والأديان جميعاً تحض على التزود من الدنيا للدنيا والآخرة ، ومن الحياة للحياة والموت ، ولذلك قيل : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً « وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك »

وهذا صريح فى أن العمل للآخرة مقترن بوجوب العمل للدنيا .

ولذلك كان من أهم شروط العبادة السعى فى الرزق وترفع المرء عن أن يكون عالة على الناس .

بل إنى ليظهر لى مما قرأته وشاهدته أن أوامر الأديان ونواهيها إنما وضعت لحكم دنيوية ، وما الدين إلا وسيلة للعيش

الزغيد في الدنيا والهناء الدائم بعد الموت . فليس هناك أمر ديني إلا وله في الدنيا مصلحة ، وليس هناك نهى ديني إلا وله في الدنيا حكمة ، ولولا أن مجال هذا البحث واسع لضربت لك الأمثال كثيرة متعددة ، وها هو الحج لست أريد أن أحدثك عن جانبه الديني ، فهو من حيث الدين فريضة وطاعة عليك أن تقوم بها دون أن تناقش في أسرارها ، وتؤدي مناسكها دون أن تعرف أسباب وجوبها ، ولكني أريد أن أتحدث عن فوائد الحج ومناسكها من حيث الدنيا فإن الله سبحانه وتعالى يقول « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ... »

ولست أريد أن أذكر من هذه المنافع ما يستفيد منه الراحل من العرفان ببلاد جميلة لها مزاياها الطبيعية التي يسافر من أجلها السائحون في مختلف الأنحاء ، ولا ما يفيد أهـل الحجاز من زيارة الحجاج لهم .

إنما أريد أن أذكر ما يجنيه المرء عادة من التعارف بالناس في جهات متعددة ، وثمره ذلك في رواج التجارة وتبادل الأرزاق .

والحج مذهب للنفوس يدفعها إلى الفضيلة ويدفع الرذيلة عنها ، والفضيلة والرذيلة تنطوي تحتها كل معاني الحياة . ينطوي تحتها القيام بالواجب وعدم القيام به . والعدل والظلم والعطف

والقسوة ، والإعطاء والحرمان ، واحترام الناس وازدراؤهم
والكمال والنقص .

والحج مساواة بين الناس : الكبير والصغير ، سواء كان ذلك
في الإحرام أم في الطواف والسعي والدعاء ، نزول في الحرم
الفوارق بينهم فلا يكون لغيري فضل على عجمي إلا بالتقوى .
لهذا أعتقد أن الحج على ما فيه من فكرة دينية فإن له
حكمة دنيوية ، وهكذا كل الفرائض .

تأبعت السيارة بنا سيرها والطريق على ما وصفت ، وكنت
أتوقع بعد ما سمعت أن السيارة ستقف بنا في كثير من الأماكن
ولكن سائقنا لم يقف بنا إلا حيث أراد هو أن يقف ، فاستمر
سيره حتى رأينا أنواراً قليلة ساطعة تتلألأ في ظلام الليل ،
وإذ وصلنا إليها وجدنا داراً للبوليس الذي أقبل علينا واطلع
على أوراقتنا «الكوشان» ووجدنا مقهى ذا كراسي ودكك متناثرة
في مكان قريب من الطريق ، فابدينا رغبتنا في النزول للراحة
فيها ، وبقينا بها نصف ساعة صلى فيها من صلى وأكل فيها من أراد ،
وتناولنا بعض الشاي والقهوة ، وانصرفنا ، وكانت تلك هي محطة
أم السلم .

سرنابعد ذلك عشرين ميلاً حتى وصلنا إلى قرية كبيرة
هي محطة للسيارات والقوافل ، وهي بطبيعة الحال أكبر
من أم سلم ، وبها مطعم واستراحة «لوكاندة» ونقطة للبوليس

استرحنا فيها مدة يسيرة ثم سرنا فقال لنا السائق : إنه قد بقي بيننا وبين مكة نحو ثلاثين ميلا ، وأنه ستقابلنا محطة الشميسى « مكان الحديدية » فأعربنا له عن رغبتنا فى أن نواصل سيرنا إلى مكة رأسا ، وأن ما قضيناه فى الاستراحتين السابقتين كاف خصوصا أن الليل قد فات أكثر من نصفه ونحن نريد الطواف والسعى قبل الراحة ، وعلى هذا اتفقنا .

كانت رحلة جميلة ، وكان الجو صافيا ، وكانت النفوس فرحة وكانت القلوب مستبشرة ، ولم يقف لسان أحد عن التلبية والتهليل والتكبير ، وكيف تفترا الألسنة عما رغبت فيه ورحلت من أجله ؟ الطريق بدوى طبعاً ، والمباني التى عليه بدوية أيضاً ، ولعل وعورة الطريق من أهم العوامل التى تستغرق الوقت وتجهد القوى ، ولذلك عمدت مصر إلى اعتزام إصلاحه ورصفه ، وهى جادة فى اتخاذ الأهبة لذلك ، وعلى الرغم من الأماكن الرملية والصخرية التى مررنا بها لم نتعثر بنا السيارة وإن كنا قد شاهدنا بعض السيارات متعثرا فى الطريق ، ومررنا بالشميسى وغادرناها ، وبعد قليل وقف السائق فجأة ! وقال هذا حد الحل والحرم !! نحن الآن فى الأرض الحرام ، هذا مكان البيعة ، وهنا المسجد الذى أقيم مكان الشجرة التى بايع المؤمنين تحتها رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وسرنا قليلا وأصبحت مكة على مرأى العين . ولمكة دعاء يتلوه المرء عند ما تقع عليها عينه « اللهم إن هذا الحرم حرمك

والبلد بلدك والأمن أمنك والعبد عبدك جنتك من بلاد بعيدة
بذنوب كثيرة وأعمال سيئة ، أسألك مسألة المضطر اليك
المشفق من عذابك أن تستقبلني بكريم عفوك ، وأن تدخلني
في فسيح جنتك ، جنة النعيم . اللهم إن هذا حرمك وحرم رسولك
فحرم لحى ودمى وعظمى على النار ، اللهم آمنى من عذابك يوم
تبعث عبادك ، أسألك فإنك أنت الله لا إله إلا أنت الرحمن
الرحيم ، أن تصلى وتسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
تسليماً كثيراً .

الآن نسينا متاعب السفر ، نسينا مشقة الطريق . نسينا
ما لقينا من مشقة انتظار السيارة ومرورها على نقط
البوليس ، ونسينا أولادنا وأهلنا ، نسينا مصر ، نسينا أعمالنا
ومتاعنا ، لم يعد لنا فى الذاكرة غير الله ولا شاغل لنا إلا حرمه .
اللهم إن الحرم حرمك ، اللهم إن العبد عبدك ، اللهم لا ظل
إلا ظلك ، اللهم لا ملك إلا لك ، اللهم لا مرجع إلا اليك . لكل
قضاء مرد إلا قضاءك ، ولكل كلم رجعة إلا حكمك ، ما لك الملك
المسيطر على العالم ، خالق النفس والشمس والقمر .
ليس لنا إلا أن نسأل الله العفو والعافية ، نسأله عفو القادر
وجنة الخلد يوم يبعث عباده .

أى لذة تشعر بها الروح الطاهرة ، وأى رهبة تملكك النفس
عندما ينادى المنادى : هذا حدّ الحرم !؟

أى نشوة تسيطر على الروح إذ يرى من بعيد أضواء متناثرة
ويقال له إن هذه أنوار مكة !؟

هذا سائق السيارة وهو يرتاد المكان عدة مرات كل يوم
لا يتمالك نفسه عندما يصل اليه أن يقول : الله أكبر ، هذا هو البلد
الحرام ، وقد سأله في ذلك فقال : ليس أسعد لروحي من وقوفي
هنا كل مرة أحضرها ، لأنى أؤخذ كلها وصلت الى هذا المكان ،
وبمقدار ما تتملكنى هزة السرور عند الدخول فيه أشعر بالأسف
عند مغادرتى له ، وكيف لا وأنا — هكذا قال — اذا ما نمت
هنا كنت كالعابد فى مكان آخر ؟ أليس النائم فى مكة خير
من العابد فى غيرها ؟ أليست الصلاة فيها خير من آلاف فى غيرها ؟
لك أن تعتقد أن الرجل مبالغ ، ولكن ليس لك إلا أن تفسر
أن السحر والوجدان الدينى هما اللذان يمليان عليه هذه المبالغة .
دخلنا مكة ، وهى تبدأ بميدان فسيح به دار للبوليس وقفت
عنده عدة سيارات وعربات لنقل المسافرين ، وجاء الضابط
يستقبل السيارة ويطلع على أوراقها ، فحيانا وأحسن استقبلانا
وعلم من زميلى أننا من رجال المحاكم المصرية فدعانا للنزول
إلى داره لنطلع على أعمالها ، وقد حاولنا أن نعتذر له ، لأن الليل
أوشك أن يغتو ، وأن لدينا أعمالا لا مناص من أدائها قبل
انقضائه ، ولكنه صمم على دعوته فلم يسعنا إلا النزول على إرادته
وكان المطوف فى استقبالنا فاستمهلناه حتى نتهى من هذه الزيارة .

الموظفون الحجازيون قوم في غاية الظرف والأدب: استقبلهم
حلو، وحديثهم حلو وكلامهم عذب، ووجوههم سمحة، ولولا أن
في إجراءاتهم وتشبهتهم بالقيود الشكلية صلابة لما وجدت خيراً
منهم أداء لعملهم.

دخلنا نقطة البوليس، وهي دار صغيرة تتألف من ثلاث
حجرات وصالة صغيرة خصصت الغرفة اليسرى لمكتب
الضابط، وهي تحتوي على مكتب من الخشب وكنبة ومسرة
«تليفون» وفي نافذتها أواني الماء، وقد خصصت الغرفة اليسرى
لراحة الجنود، أما الغرفة الصغيرة التي في مقابل الباب ففيها أمتعة
العساكر وملابسهم.

أطلعنا الضابط على دفاتره، فإذا هي معدة بعضها لنظام العمل
وبعضها لقيود الداخلين إلى مكة والخارجين منها، لم يفرط
في صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. ومن هذا استطعت أن أتبين
أن هذه النقطة هي مفتاح المدينة، وأن كل ما يجري في المدينة
محفوظ في سجلات هذه الدار.

فمنها يمكن حصر الركاب والسيارات والبضائع والجمال
والخير التي تمر بهذا المكان — ولا يمر غيره — ويمكن بعدئذ
ضبط إيراد الحكومة من هذه الحركة، إذ إنها على ما علمنا
تساهم في شركة السيارات.

لم يطل وقوفنا مع الضابط، لأنه كان مشغولاً بملاحظة السيارات

الداخلة وإحصاء من فيها وما فيها ، وركبنا سيارة مرت بنا
في فضاء واسع ، ثم في شارع متسع ، ثم في شارع الشيكية حيث
أعد لنا مطوفنا محل الإقامة .

دخلنا المنزل فاسترحنا قليلا ثم خرجنا لأداء ما علينا
من شعائر الدين .

والمنازل في مكة كالمنازل في جدة ، وكان المنزل الذي أعده لنا
المطوف مؤلفا من خمس طبقات نزل قاض مصرى مع زوجته
في أولاهها ، ونزلت مع والدى وخادمنا في الثانية ، ونزل زملاؤنا
الثلاثة رجال المحاكم في الثالثة ، ونزل صاحب البيت في الرابعة ،
أما الطابق الأرضى فكان حوانيت للتجارة .

وهكذا كان هذا البيت كأنه محكمة مصرية كاملة ، ويأخذك
الدهش اذا رأيت مصادفة أن صاحب الدار أيضا قاض
حجازى ، ويسكنه من الحجيج قاض مصرى ، ووكيل نيابة ، وسكرتير
نيابة ، ورئيس كتاب احدى المحاكم المصرية ، وليس به عدا هؤلاء
سوى بعض الأهل والخدم .

وكانت مصادفة جميلة ظن معها رجل حجازى ظريف أن
نكون قد أزمعنا احتلال دار القضاء عندهم ! . والدار التى نزلنا
فيها تعتبر مثلا طيبا للدور في مكة ، فإنها من أحسن مبانيها بعد
قصر المالك ودور الأمراء والوزراء ودار الحكومة . وتكاد كل
المنازل تتألف من حجرة واحدة بداخلها اخرى وعلى بابها

دورة المياه كما تكاد كل الحجرات تكون مؤثثة « بالمصاطب »
 الدائرة حول الجدران ، والمفروشة بالحشيات والوسائد ، وهي
 تستعمل للجلوس نهارا ، فاذا جاء الليل وضع عليها فراش آخر
 ورفعت فوقها الكلات واستعملت أسرة للنوم . ومرافق المياه
 هناك خالية من النظام والنظافة . فطلاب حوائطها لا يكاد يعتبر
 طلاء ، فهو طبقة رقيقة من الجير على الأحجار لا توسطهما طبقة
 من الدهان كالتى توضع فى مصر . لذلك لا أخفى عليك أن الإقامة
 فى هذه المنازل لا تيسر معها الراحة . ولذلك كنت مضطرا
 أن أغتسل فى حمام آخر خارج المنزل كلما أردت الاستحمام ، ولولا
 أن المطوف كان قد استأجر البيت ودفع أجره لصاحبه ، ولولا
 أن زملاءنا عز علينا فراقهم لا نتقلنا إلى فندق الحجاز للإقامة
 فيه ، ولكننا احتملنا كل شيء لا يحتمل من أجل هؤلاء الرفاق .

سندرس مكة غد أما الآن فنحن ذاهبون الى الحرم
 نطوف ونسعى ، ولدينا لمكة أسبوعان ندرس فيهما ما شئنا أن
 ندرس وما تمكنتنا الفرصة من دراسته . كان لزملائنا رأيان
 أحدهما أن نستريح إلى الصباح ثم نقوم للسعى والطواف ،
 وثانيهما أن نقوم اليهما فوراً فالأمر لا يحتمل التأخير . وكنت
 صاحب الرأى الثانى ، ولم أقبل بشأنه أى جدل « لا جدال فى الحج »
 وكانت حجتي اننا قادمون من بلاد نائية للطواف والسعى فلا
 معنى لتأجيلهما عند ما نصل إلى مكة ؟ ! هذا لن يكون . إنى

ياسيدي ذاهب إلى الحرم رافقتموني أو انفردت عنكم فلا
تضامن في العبادة ، وكل ميسر لما عزم عليه . بماذا نحاور ضمائرنا
إذا فات الوقت ولم يبق لدينا سوى أسف و آت ساعته ، وندم
لا يجدي ولا يفيد .

انضم اخواني لرأي وقتنا في ظلام الليل متجهين الى الحرم .
ليس في مكة إضاءة لشوارعها ، والناس يسرون على هدى
مصاييح يحملونها ، وكانت معنا « بطارية » أضائنا وسرنا في خطي
مطوفنا وهو ينادى بأعلى صوته « اللهم إن هذا الحرم حرمك
والبلد بلدك والأمن أمنك » ونحن ثمانية نتبعه نردد هذا الدعاء
في صوت مرتفع متهدج يشق عنان السماء .

ليس لقانون التجمهر سلطان في بلاد الحجاز ، ولو كان
نافذا هناك لما كان له علينا من سبيل ، فما نحن مرتكبون .
وزرا ، وما نحن عازمون على ارتكابه إنما نحن ننادى بالدعاء لله
صاحب السلطان وما نخشى أن يكون لصوتنا تأثير في راحة
السكان والنايمين ، فما أعدت مكة للنوم أيام الحج ، والآلاف
الهابطون إليها يسرون في الطرقات كما نسير . ولو أننا ذهبنا إلى
الحرم راكبين أو راجلين صامتين ما كانت نفوسنا لتستريح
إلى حسن أداء الواجب ، ثم ما كنا لنشعر بروع العبادة
ورهيبة المكان .

وهكذا سرنا حتى وصلنا إلى الحرم وطبقنا حوله بعض الطواف لنصل إلى باب السلام ، فما وصلناه حتى أشار لنا المطوف بالوقوف ثم قال إن الدخول إنما يكون بالرجل اليمنى ونجأة أشار لنا بترديد دعائه ثم رفع صوته في باب السلام وقال : « اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام ، تباركت ربنا وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام ، اللهم افتح لي أبواب رحمتك ومغفرتك وأدخلني فيها بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله » .

ذلك أنه يستحسن أن يكون دخول الحرم لأول مرة من باب السلام ، ويحسن عند الوصول أن يكون الدعاء بما مر ، ثم دخلنا يميننا ونحن مأخوذون بجلال البيت ومهابة صاحب البيت وقد رأينا الآلاف هناك يعبدون الله كأنما الليل لم يخلق لمكة وحجيجها ، أو كأنهم وقد جاءوا إلى بيت الله يعملون بما أمر الله : « قم الليل الا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً ، انا سنلق عليك قولاً ثقيلاً ان ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلاً ، ان لك في النهار سبحا طويلاً ، واذكرا اسم ربك وتبتل اليه تبتيلاً ، رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلاً » وهم يعتقدون أنهم لو ناموا الليل اضيعوا وقت العبادة في مكة وهي دار للعبادة وقد قطعوا آلاف الاميال مسافرين إليها لهذه العبادة وحدها

وما وقع نظرنا على البيت الشريف حتى انطلق المطوف
 ينادى « لا اله الا الله والله أكبر » وبعد أن هتف بهذا ثلاثا
 قال « لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو
 على كل شيء قدير ، أعوذ برب البيت من الكفر والفقر
 ومن عذاب القبر وضيق الصدر وصلى الله على سيدنا محمد وعلى
 آله وصحبه وسلم ، اللهم زد بيتك هذا تشريفا وتكريما وتعظيما
 ومهابة ورفعة وبر يا رب من شرفه وكرمه وعظمه بمن حجه
 واعتمره تشريفا وتكريما وتعظيما ومهابة ورفعة وبر ، ثم دخلنا
 نؤدى طواف العمرة حول بيت الله الحرام .

ليس في معاجم اللغة العربية ولا في موسوعات اللغات الأخرى
 ما يستطيع به المرء أن يصور منظر الحرم في جلاله أو منظر
 الكعبة في قدسيتها والناس يطوفون حولها ، بل ليس في قدرة
 التصوير المتحرك « السينمائي » أن يصور صورة واضحة لهذا
 المنظر ، فإنه مهما كان واضحا فلن يصور مظاهر المهابة
 والسحر الروحي والرهبة التي يؤخذ الناس بها ، وليس في قدرتي
 أن أوضح السبب في هذه الروعة ، ومهما يكن فليس السبب
 بناء الكعبة وما حولها من شعائر ، إنما هو رابطة القلوب واجتماعها
 حول الدين الحنيف الذي نشره محمد عليه الصلاة والسلام
 وأرسل له من لدن عزيز حكيم . وما الكعبة وما الحرم إلا رمز
 التقديس والعبودية لله تعالى .

تعالوا يا رفاق نؤدى واجب الخضوع والابتهاال إلى الله تعالى بالطواف حول الكعبة المقدسة ، تعالوا نمر من باب بنى شيبه لنصل إليها ، وتقدموا إلى الله عند هذا الباب داعين قائلين « رب ادخلني مُدخل صدق وأخرجني مُخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ، وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ، ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً »

تعالوا بنا نثوى الطواف معاً سبعة .

حول الكعبة

نوبنا أن نطوف للعمرة سبعة أشواط، وأقبلنا على ما بين الركن
اليمنى والحجر الأسود وقلنا « بسم الله الرحمن الرحيم ربنا
آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » ثم
تقدمنا حتى حاذينا الحجر الأسود لنبدأ الطواف منه ووقفنا
مستقبلينه قائلين « بسم الله والله أكبر والله الحمد والصلاة
والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم . اللهم إيماننا بك
وتصديقاً بكتابك ووفاء بعهدك واتباعاً لسنة نبيك محمد ﷺ اللهم
إني أسألك العفو والعافية والمعافة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة
والفوز بالجنة والنجاة من النار » ثم تقدمنا نحو الحجر الأسود
فقبلناه على رغم الزحام الشديد ، فقد كان الزحام بالغاً أشده بحيث
لا يتصوره الذهن ولا تدركه العين ولولا معونة جندي واقف
بجواره لما تيسر لنا أن نقبله وما استطعنا الوصول إليه ، ومع ذلك
فلم نستطع النجاة من الزحام إلا بشق النفس وبضال أدى
إلى وقوع منظرنا فأنكسر وضاعت كل أجزائه وأعضائه .

وأخذنا نعد الأشواط وندعو في كل منها بدعاء ، حتى إذا
حاذينا الركن اليماني استلمناه فلما اقتربنا من الحجر الأسود قلنا
« ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار »

وإذا حاذينا الحجر الأسود كبرنا وحمدنا الله حتى أتممنا
الطواف سبعا وختمناه بقولنا « اللهم اجعله حجاً مبروراً وسعيًا
مشكوراً وذنباً مغفوراً ، رب اغفر وارحم ، واهدني السبيل
الأقوم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم »

فلما أتممنا الطواف توجهنا الى الملتزم « حائط الكعبة بين
الحجر الأسود وبابها » ووضعنا عليه صدورنا وفرشنا أذرعنا
وهتفنا في ذلك المكان حيث يستجاب الدعاء « اللهم يا رب
البيت العتيق اعتقني واعتق رقابنا ورقاب آبائنا وأمهاتنا
وإخواننا وأولادنا من النار وأعذنا من كل سوء وأقنعنا بما رزقنا
وبارك لنا فيه يا ذا الجود والكرم والفضل والمن والعطاء
والإحسان ، اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من
خزي الدنيا وعذاب الآخرة . اللهم إني عبدك وابن عبدك
واقف تحت بابك ملتزم بأعتابك متذل بين يديك أرجو رحمتك
وأخشى عذابك يا قديم الإحسان . اللهم إني أسألك أن ترفع
ذكري وتضع وزري وتصلح أمري وتطهر قلبي وتنير لي قبري
وتغفر لي ذنبي ، وأسألك الدرجات العليا في الجنة »

فلما انتهينا من هذا الدعاء انتقلنا إلى مقام إبراهيم فصلينا
ركعتي الطواف ودعونا الله وهررنا على زمزم فشربنا منها
هنيئاً وقلنا « اللهم إني أسألك علماً نافعاً ورزقاً واسعاً وشفاء

من كل داء ثم عز منا على الخروج للسعى بين الصفا والمروة ، وكان
من الجائز أن نشير اليه ونقبل ما أشرنا به ، خصوصاً وقد لقينا
في تقبيله شدة بالغة ولا كبر . نفوسنا أبت إلا أن نفعل ، فبدلنا
جهودنا حتى وصلنا اليه وقلنا ما اشتهينا . وبعد أن فرغنا
من الطواف وتوابعه خرجنا الى السعى مسرعين .

« ان الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر -
فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله
شاكر عليم ،

وارتفعنا على درج الصفا ونوينا السعى وقلنا الله أكبر الله
أكبر الله أكبر والله الحمد ، ثم اتجهنا إلى المروة داعين ذهاباً وجيئة
مواالين حتى قطعنا الأشواط السبعة ، وكنا إذا ما وصلنا إلى
العمودين الأخضرين في شارع المسعى هرولنا وأسرعنا في مشينا
إسراعاً هو فوق المشى ودون الجرى .

الناس آلاف في هذا الشارع والأصوات فيه تشق عنان
السماء ، وكنا نظن أنهم يتناقصون فإذا بهم يترادون ذلك أن
العبادة تحرض من طاف أن يعاود الطواف مرة أخرى ، وتدفع
من سعى إلى أن يعاود السعى ، وقد اقترب الفجر وبدأ الهاجعون
يستيقظون من نومهم إلى طوافهم وإلى سعيهم .

انتهينا من هذا كله وتوجهنا إلى حيث حلق كل منا بعض

شعر رأسه ، وبهذا تحللنا من الإحرام ، وحل لنا كل ما كان محرماً علينا من قبل .

عدنا الى المسجد الحرام لصلاة الفجر ، وإذا بالناس بعضهم فوق بعض متزاحمين ، وإذا بالمؤذن يؤذن بصوت جميل أخذ ثم قامت الصلاة والناس حول الكعبة متقابلة وجوههم ، فإن كل جانب من جوانبها قبلة يتجه اليها الناس في الصلاة .

ليس هنا ما يشغلنا غير الله وعبادته ، وليس متجليا غير حياة الروح ، ليس هنا غير محبة خالصة ، خالية من الغرض ، غير معلولة بعلة .

أدينا ما علينا ولم يبق غير التزود من التقوى وإنفاق الوقت في التقرب الى الله تعالى ، فلنذهب الآن الى منزلنا نستريح قليلا ثم نعود الى المسجد نتعبد فيه ما شاء الله أن نتعبد ، وندرس تاريخه وآثاره .

نحن الآن قبيل الظهر ، وبعد صلاته سنعود الى دارنا ونجتمع معا أيها الرفاق على مائدة غداء واحدة عربونا لصداقة مقمية وعلاقة دائمة في سبيل الله ، فقد أعددت لكم اليوم طعامكم ، وسنذهب بعد ذلك إلى الحرم نصلي العصر ، ونبقى حتى نقضى صلاة العشاء ، ولنؤجل دراسة مكة إلى غد أو بعد غد حتى نروى غلتنا من هذا المكان المقدس . ولنعد الطواف تهجدا وتقربا

وزلفى لله جل شأنه وتعالى اسمه ، وتقدست عظمته بين الأنام
هكذا قلت لرفاقي ، وكان ما أردته .

هذه هي الكعبة !

هذا هو الحرم !

هذا هو المسجد الحرام .

هذا الذى ورد ذكره فى الكتاب الحكيم :

« قد نرى قلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول
وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم
شطره » « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد
الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون
للناس عليكم حجة »

أجمع المفسرون على أن المسجد الحرام هو الكعبة ، ولذلك
يولى المراء وجهه شطرها فى صلاته . وليس المقصود اذن هو حرم
المسجد أو ما أضيف اليه من فضاء ، ذلك الفضاء الذى كان
موجودا منذ القدم ثم بنيت فيه منازل هدمت بعد ذلك
وأضيفت الى المسجد الحرام لزيادة المساحة .

يدل على صحة هذا التفسير أن الناس داخل الحرم يولى
كل منهم وجهه شطر الكعبة ، فيقف الى أى جانب من الجوانب
ويصل الى ما دامت الكعبة أمامه ، ولهذا ترى المصلين وجوههم

متقابلة، منهم من يتجه نحو الشرق، ومنهم يتجه نحو الغرب ومنهم من يتجه إلى جهات أخرى، ولو كان المقصود بالمسجد الحرام المسجد نفسه لأتجه المصلون إلى جهة واحدة من جهات الكعبة. هذه هي الكعبة « أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين »

ليس هناك مجال للقول بأن هناك بيوتاً وضعت للناس قبل ذلك البيت الذي ببكة. فهناك من يقول إن بيوتاً أخرى كانت موجودة قبله، وأن الترتيب الذي نزل في القرآن عن أولوية بيت مكة إنما هو الأولوية من حيث البركة والهدى، فإن الأولوية على هذا غير مفضلة على أولوية الوضع. ولعل هذا الرأي هو الذي بعث الكثيرين إلى القول بأن بيت بكة إنما هو من عهد آدم. نعم لقد جاء في « شفاء الغرام » للتقي الفاسي أن الكعبة قد بنيت عشر مرات أولاً بناء الملائكة وثانيها بناء آدم.

وصف الكعبة

والكعبة في وصفها الحالى بناء شامخ قائم في وسط المسجد بالغ الروعة والفخامة، مرتفع شاهق الارتفاع، فهو وإن كان غرفة واحدة، إلا أنه مرتفع خمسة عشر متراً تقريباً، ولهذه الغرفة باب يفتح إلى الجهة الشرقية، ويرتفع عن الأرض نحو المترين وفيما عدا الارتفاع فهي بناء يكاد يكون مربعاً، عرض كل

ضلع من أضلاعه نحو العشرة الأمتار أو يزيد . . ويخيل
إلى أن ضلعيه الغربي والشرقي يزيدان نحو متر عن الضلعين
البحري والقبلي .

هذا البناء الشاخ مستور من كل مكان خارجي بكسوة
فاخرة ، رسلها مصرفي كل عام موشاة ومطرزة أحسن تطريز
داكنة اللون ، مصنوعة من الحرير ، كما أنه مكسو من الداخل كذلك .

لقد شغفت نفسي بدخول هذا البيت العتيق ، والدخول
ليس بالأمر اليسير ، فإن للسكينة مفتاحا له أمين يدعى الشيخ
الشيبى ، وهو مولى عليها فلا يدخلها أحد إلا بإرادته ، وهذه الإرادة
قد لا يكفي المال القليل فى الحصول عليها ، ولا مناص بعد المال
من توصية أو معرفة .

حتى فى عبادة الله ودخول بيته يقف الخادم حائلا يأذن
لمن يشاء ويمنع من يشاء كما هو الحال فى أمور الدنيا !!

ان هذا البيت وضع للناس !

أفلا يكون الناس أحرارا فى دخوله ؟ ؟ وإذا خيف من أن
يمسوه بسوء فإن اتخاذ العدة للنظام كفيلة بصيانتة ! .

لكن هؤلاء المكيون معذورون فى نظرى ، لأن الحجاج
يندفعون اندفاعا شديدا فى كل مناسكهم . . فهم إذ يريدون
الطواف لا يقنعون ، وإذا يريدون تقبيل الحجر الأسود

لا يشبعون . وإذا استلموا الركن اليماني لا يتركونه ؟ فكيف يطلب الى آل شيبي أن يتركوا الناس أحراراً في ذلك ؟ يضاف إلى هذا أنه مصدر إيراد كبير لعائلة كبيرة من أقدم عائلات مكة .

كانت معي توصية فكان الترحيب بي من آل الشيبى بالغاً والحفاوة كبيرة ، فصعدت على السلم ودخلت ، فما وصلت الى الباب حتى أخذتني رهبة هزت كل جوانب نفسي هزاً عنيفاً .

ما سبب هذه الرهبة ؟ ؟ ولست إلا داخلاً حجرة كالحجرات التي أدخاها عدة مرات في كل يوم . وما أظن الرهبة قد تولتني من الرائحة الزكية التي فاح أريجها في هذه الغرفة المقدسة ، ولا أظن أن للشيخ الشيبى تأثيراً يرهب النفوس ويدخل عليها هذه الحالة التي سرعان ما اعترتني .

ما هذا الخشوع وما هذه الروعة التي جعلتني حين أرشدني الأمين الى المكان الذي صلى فيه النبي عليه الصلاة والسلام (١) لم أستطع أن أذهب اليه لشدة ما بي لولا أن أمسك بي أحد مساعديه وما زال بي حتى أوقفني فيه .

ولقد استكثرت على نفسي أن أقف في هذا المكان ، فما هناك في رأي أحد يجوز له أن يقف فيه : يجب أن يبقى هذا

(١) أمر صلاة رسول الله في جوف الكعبة موضوع خلاف بين المسلمين القدماء ، فمنهم من أثبتته ومنهم من نفاه . ولذلك اختلفوا في جواز صلاتنا فيها .

المكان بعيدا عن متناول الناس، فلا يكون لهم منه إلا مشاهدته، وما يجوز في نظري أن يقف أحد في المكان الذي وقف فيه رسول الله، فما في الدنيا إنسان له ما كان لهذا النبي الأمين حتى يقف موقف سيد الخلق الذي أنزل عليه القرآن. وما في العالم كائن نال شرف الوحي الذي نزل على قلبه من الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين.

وما كان لأحد أدبه وخلقه وعبادته وشرفه وعظمته وزهده فقد زهد في ذهب الدنيا ولو أراد له لكان له ما يشاء. أفيجوز أن يقف أحد موقفه؟ لذلك فإني إذ نويت الصلاة وسجدت السجدة الأولى خطرتي ألا أرفع رأسي عن هذا المكان المقدس! إنها حجرة رفوعة على عمد، ولكن ليس في الدنيا حجرة ما تضارعها قدسية ومهابة وجلالا.

هذه هي الكعبة التي قيل إنها بنيت عشرين مرات كان أولها بناء الملائكة، وهذا هو البيت الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا، وبه مقام إبراهيم الذي يتخذة الناس مصلى والذي عهد الله سبحانه إلى إبراهيم وإسماعيل أن يطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود.

« وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر

فأمتعهُ قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير. وإذا
يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا
إنك أنت السميع العليم.

هذه الكعبة التي تأخذك الرهبة عند ما تقع العين عليها قد
بلغت من المنزلة المقدسة والاحترام منذ فجر التاريخ ما بلغت ،
وأجمع الناس على احترامها على اختلاف أديانهم سواء في ذلك
المسلمون واليهود والنصارى ، وكان من آثار هذا الاحترام
أن ظل لها حرم واسع لا يدخله المرء إلا وهو محرم ، ومن
دخله كان آمناً . هذا التقديس هو الذى جعل المؤرخين ينسبون
أول بناء لها للملائكة ، وهو الذى دعا إلى بنائها عشر
مرات على ما قيل ، وهو الذى جعل العرب يدافعون عن هدمها
ويناضلون في هذا السبيل على مختلف العصور كلها فكر واحد
في هدمها ليتحول العرب عن الحج إليها قبل الإسلام أو بعده .
لقد قيل إن الكعبة بنيت عشر مرات منها بناء الملائكة
وبناء آدم ، وبناء أولاده ، وبناء الخليل ، وبناء العمالق ، وبناء
قصي بن كلاب ، وبناء قريش ، وبناء عبدالله بن الزبير ، وبناء
الحجاج بن يوسف الثقفي .

لست أدرى إلى أى سند يستندون في أن الكعبة قد بناها
الملائكة أو آدم أو أبناؤه ، فإن الطوفان الذى جرى أيام نوح

عليه السلام أمر واقع . وقد أُنذر نوح قومه من قبل أن يأتهم عذاب أليم « قال ربّ إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدُهم دعائى إلا فراراً ، وإني كُلهادعوتهم لتُغفرَ لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً إلى قوله « مما خطيئاتهم اغرقوا فادخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دونِ الله أنصاراً ، وقال نوح رب لا تدرك علي الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً »

هذا الطوفان الذي هذه آثاره لم يترك مبانى قائمة ، فإذا قال قائل إن الكعبة كانت موجودة من بدء الخليقة فقد يكون قوله منصبا على مبنى آخر غير الكعبة القائمة اليوم ، إذ أنها لا يمكن أن ترجع إلى هذا التاريخ .

لذلك قال التقي الفاسى فى كتابه « شفاء الغرام » إن رواية بناء الملائكة وآدم وشيث ليست صحيحة .
وسواء أضح ذلك الذى قالوه أم لا فإنه لا نزاع فى أن الكعبة التى نطوف اليوم حولها هى البناء الذى أسسه إبراهيم وإسماعيل ، وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، وليس أصدق من القرآن قيلاً .

ولا يمكن أن يقال إن هذه الآية الشريفة لا تقطع بأن

البيت عند مرفع ابراهيم وإسماعيل قواعده كان في دور الإنشاء .
لأنه لا يجوز أن يكون موجودا وما حدث به سوى زيادة
أو إصلاح ، فإن رفع القواعد قاطع في أنه إنشاء وخلقة . يؤيد
ذلك ماورد في القرآن من أن الأرض التي أقيم البيت عليها
كانت بواد غير زرع ، وكانت خالية من السكان . ولسنا في هذا
نستنتج فقد قال « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير زرع .
ويقطع بعدم وجود أحد قوله « فاجعل أفئدة من الناس
تهوى إليهم » .

يؤيد ذلك ما ذكر عن نبع ماء زمزم مما سورد عنه .
الكلام فيما بعد .

ودليل آخر على أن ابراهيم واسماعيل هما اللذان أسسا
الكعبة ماورد في صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها أنها
قالت : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا حداثة قومك
بالكفر لنقضت البيت ثم لبنيته على أساس ابراهيم عليه الصلاة
والسلام ، وورد عنها أيضا رضى الله عنها أنه قال عليه السلام :
لولا أن قومك حديثو عهد بالجاهلية لأمرت بالبيت فهدم
فأدخلت فيه ما خرج منه وأصقته بالأرض وجعلت له بابين .
بابا شرقيا وبابا غربيا فبلغت به أساس ابراهيم ، قيل فذلك
الذى حمل ابن الزبير على هدمه . قال يزيد وشهدت ابن الزبير

حين هدمه وبناءه وأدخل فيه من الحجر ، وقد رأيت أساس
إبراهيم حجارة كأسنمة الإبل .

هذا كله قاطع في أن الكعبة من تأسيس إبراهيم وإسماعيل .
وقد بلغ من وثوق المؤرخين بهذا التفسير أن قال التقي
الفاي على التحديد « إن إبراهيم كان يبنى وكان إسماعيل ينقل
له الحجارة على كتفه . وهذا الرأي إنما بينه القرآن والحديث .

حدث بعد ذلك هدم وبناء وإصلاح قضت به الحوادث
من جهة ومرور الأيام من جهة أخرى ، وبلغ من تقديس
الكعبة في النفوس واحترامها بين الشعائر أن وضعت
لها الزخارف وكسيت جدرانها من الداخل والخارج بأستار
من حرير .

هذه الزخارف وهذه الأستار لم يقصد بها - في نظري -
إلى رفع شأن الكعبة أو جعلها رهبية ، فهذا الرمز الديني
المقدس إنما يزداد عظمة كلما ازداد بساطة ويزداد مهابة
كلما ازداد سذاجة ، يدل ذلك على ذلك أن كثيرا من الأماكن
ذات الأثر الديني لا ينقطع عنها الزوار وهي عاطلة من كل
زخرف ، جمالها وبهاؤها في تجردها من كل شيء . هذه الزخارف
وهذه الأستار لم تكسب البيت جديدا ، فقد كان محج الأمم

الاسلامية جمعاء قبل أن يزخرف ويكسى، إنما هؤلاء
الذين هدام تفكيرهم إلى زخرفته وكنسوته قصدوا إلى
حياته والمحافضة عليه من الزمان يبتغون فضلا من الله
ورضوانا، فما كان التقديس للاحجار والأستار، فالبيت
في حكمة وضعه وجمال بنائه ملء الدنيا، وملء العين والبصر،
وملء النفس والروح، وهو آية لأسمى معنى من معاني التمسك
بالعقائد وتقديسها.

تاريخ الكعبة

رجح المؤرخون أن الكعبة إنما أنشأها ابراهيم واسماعيل ولم يكن لها قبل ذلك وجود . وهم في ذلك يستندون ، على ما أوردنا من الكتاب والحديث ، الى أن الناس كانوا قديما يعبدون الكواكب والأوثان ، ولم يكونوا يعترفون بألوهية الخالق العظيم ، وكانوا يعبدون أشياء معينة معروفة ظاهرة غير محجوبة كالشمس والنجوم والأصنام ، يصنعونها ويعبدونها ، فلم يكونوا بحاجة إلى بناء بيت يجعلونه رمزاً لعبادة الله الذي جل عن رؤية العيون ، والذي قال لموسى إنك « لن تراني ولكن انظر الى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترائي »

ولو أن ابراهيم كان قد وجد أهله يعبدون الله ويرمزون لعظمته ببناء الكعبة لما قال لأبيه آزر « أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين ! »

وقد كان بينه وبين والده عتاب ، إذ وجده يصنع الأصنام لقومه يعبدونها . وقد عني القرآن بذكر الكعبة الشريفة في عدة مواضع ، فلو أنها وجدت قبل آدم أو كانت من صنعه لما اقتضت أي الذكر الحكيم على ذكر الأصنام في معبودات آل ابراهيم .

فأهنا لك بد من التسليم بأن الكعبة من بناء إبراهيم وإسماعيل ولم يسبقهما أحد إلى ذلك .

ولقد اختلف المؤرخون فيها حدث للكعبة بعد ذلك ، فبعضهم يقول إنها بنيت في عهد العمالة ، ثم في عهد جرهم ثم بنيت بعد ذلك في عهد قريش ذلك البناء الذي حضره وشرفه رسول ﷺ ثم بناها عبد الله بن الزبير ، ثم أجريت بها بعد ذلك اصلاحات متتالية . ويقول بعض المؤرخين ان الكعبة بنيت ثلاث مرات : بناء إبراهيم ، وبناء قريش ، وبناء الزبير .

والحكم في صحة هذه الروايات يقتضى أولاً أن نعلم أن بين إبراهيم وقريش سبعة عشر قرناً ، لأنه مهما قيل في فن البناء وعظمته فلا يمكن أن تحتل الكعبة هذه القرون الطويلة قائمة بلا تغير . هذا فضلاً عن أننا لا نعلم عن يقين شيئاً عن هذا الفن قبل إبراهيم ، فلقد توالى على بلاد العرب أمم عربية متعاقبة ، منها : العرب البائدة ، ومنهم العمالة ، وعرب عاد وثمود ، والأنباط ، وأعقبهم القحطانيون رجال الفرات ، ودولة حمير ودولة سبأ . ويقال إن هؤلاء وأولئك شأننا في الحضارة ، فقد كانت لأولئك « أرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد » وقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، فلما أمرهم

الله أن كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور
أعرضوا فأرسل الله عليهم سيل العرم فلما دالت دولتهم
وتعاقبت بعدها حمير والتبابعة فالاحباش فالفرس انتقلت زعامة
العرب من جنوب البلاد إلى شمالها، ومن هذه الدول إلى العرب
العدنانية من ذرية ابراهيم واسماعيل، ومن بينهم قبيلة جرهم
التي تزوج منها اسماعيل وكثر نسله وانتشر بنجد والحجاز
والشام والعراق وبقي منه بمكة آل قريش الذين ضمهم قصي بن
كلاب واجتمعوا على بني خزاعة حتى غلبوهم على أمرهم
واستولوا على مكة منهم، وكانوا قد اعتصبوها من ملوك جرهم
وتولى قصي بن كلاب أمر مكة وأمر الكعبة، فكانت له رئاسة
اللواء، ورئاسة دار الندوة، وحجابة الكعبة، وسقاية الحاج
ورفادته، وظل على هذا الحال وورثه أبناؤه حتى ولى الأمر
عبد المطلب والد عبد الله وجد رسول الله .

وهذه اللوحة التاريخية القصيرة تلخص سبعة عشر قرناً بين
أيام ابراهيم وأيام رسول الله، تخللها حكم جماعة من الأقوياء
وضعوا أيديهم على الكعبة، فإما أن تكون الكعبة قد بنيت
بحالة لا تتصورها من المثانة ولم يقم العمالة وجرهم وقصي بن
كلاب من أمرها إلا بإصلاح بسيط إلى أن جاء حكم قريش
فبنوها، وإما أن تكون قد بنيت عدة مرات على الأسس

التي وضعها ابراهيم . وسواء أكان هذا أم ذاك فليس هناك ريب في أن هؤلاء يدا في أمر الكعبة ، فلا يعقل أن تبقى سبعة عشر قرنا على بنائها الأول ، ثم ان ابراهيم واسماعيل لم يكونا بناءين متمكنين في فن البناء ، فلا مرأ أن بناءهما يكون قصير العمر ، ولو أن غيرهما هو الذي بناها ، أو لو أن أحدا من رجال الفن قد شاركهما في بنائها أو لو أن أمر الفن في أيامهما كان ذا بال لأمكن ادراك مغزى الخلاف بين المؤرخين في أمر بناء الكعبة خلال هذه السبعة عشر قرنا . أفيسهل أن نصدق أن أصحاب إرم ذات العماد أو من كان لهم في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، أو قصى هازم بنى خزاعة قد مروا جميعا على الكعبة ينظرون إليها شذرا لا يعنون بأمرها وهم يقدسونها ؟

لقد كان من أهم مفاخر قصى بن كلاب أن كانت له حجابة الكعبة فكيف لا يعنى بأمرها ؟ لذلك أعتقد من مرور الزمان الطويل ، ومن تقديس رجال الحقب هذه للكعبة مع سلطانهم واقتدارهم أنهم لم يمروا عليها سكو تا مع مالها من قداسة ، وأنها لم تأمن أثر السيول وتقلبات الجو في تاريخها الطويل .

وقبيل البعث وهن بناء الكعبة بسبب حريق شب فيها

فأتى على أشجارها وأخشابها واجتمعت قریش لبنائها على أن
 يكون دخولها وقفا عليهم لا يدخلها إلا قرشى . واختصمت
 قبائل قریش إذ ذاك فيمن يرفع الحجر فيضعه في موضعه ،
 وكادت تدور رحى الحرب بينهم إلا أن أبا أمية بن المغيرة
 أشار عليهم أن يتهادنوا حتى يحكموا أول داخل ، وما هي إلا
 برهة حتى دخل عليهم محمد الأمين ، وكان قد اشتهر بهذه الصفة
 فعرضوا عليه أمرهم فأمر بشوب فأحضر له فوضع فيه الحجر
 وقال « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الشوب ثم ارفعوه جميعاً »
 ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ثم بنى عليه .
 وقد أحدثت قریش تغييراً في بناء الكعبة فزادت في طولها
 وأقصت من عرضها ، وهم يعلمون ذلك بأن قریشاً لما أرادت
 بناء الكعبة خرج الوليد بن المغيرة يبتاع أخشاباً لبنائها فوجد
 سفينة لتاجر رومي اشتراها منه واستدعاه لبنائها واجتمعوا على
 ألا يدخلوا في بناء الكعبة إلا ما كان كسباً حلالاً فلم يجتمع
 لديهم من الكسب الحلال سوى ما بنوا به ، فاضطروا إلى
 انقاص مساحة الكعبة توفيراً للنفقة التي أعوزتهم .

وجاء ابن الزبير بعد ثمانين عاماً فرأى بناء الكعبة قد وهن
 من نار اتصلت بها فأعاد بناءها بعد أن أضاف إليها ما أخرجه
 قریش منها وزاد في طولها ، وبقيت كذلك حتى جاء الحجاج

فهدم ما زاده ابن الزبير وأعاد الكعبة إلى حجمها الذي تركتها عليه قریش .

وحدثت بعد ذلك في عهود مختلفة تحسينات وزخارف للكعبة ليس من المهم الآن تكرارها فأننى أقصد إلى بيان أصل الكعبة وتاريخ بنائها الأول والأخير . أما ما حدث ويحدث بعد ذلك من التحسينات فإنه مستمر على توالى الأيام مطرد مع الرغبة في تقديسها والمحافظة على بقائها في كل الأحوال والأزمان .

وهذه هي الكعبة التى يقوم على سدايتها ومفاتيحها بنو شيبه ابن عثمان وارث عثمان بن طلحة ، ولاهم رسول الله عليه السلام حين قال لعثمان « خذوها يا بنى طلحة خالدة تالدة إلى يوم القيامة لا ينزعها منكم ظالم »

وقد اختلف المسلمون فيما إذا كان رسول الله قد صلى في جوف الكعبة أم لا ، فقد نسب إلى بلال أنه قال ردأ على سائليه إن رسول الله عليه الصلاة والسلام صلى في جوف الكعبة بين العمودين الأولين ومن خلفه ثلاثة أعمدة ، وروى من جهة أخرى عن أسامة بن زيد وابن عباس أن النبي لم يصل في الكعبة .

وهذا الخلاف ليس فى واقعة تاريخية يروونها فحسب ،

وانما يراد النظر اليها من حيث تحليل الصلاة في الكعبة وتحريمها .
وقد رجح المجتهدون أن محمداً صلى بها ، وهو المعقول ،
إذ لا يمكن أن نفهم العلة في أن يدخل رسول الله الكعبة
ولا يصلي بها ، والإجماع منعقد على أنها محل تقديس وتعظيم .
والكعبة على تقديسها فيها بعض مواضع لها قداسة
خاصة وهي الحجر الاسود ، والركن اليماني ، والملتزم . وفي
جوفها مكان لا أستطيع أن أعبر عن درجة قداسته ، وهو
المكان الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأمام الكعبة وحولها آثار أخرى كالخطيم ، وحجر اسماعيل
وسيرد ذكرها عند الكلام على المسجد الحرام .

لقد أجمعت الامم والشعوب المختلفة على مر الأيام والدهور
والحقب على احترام الكعبة حتى أنهم ليقولون إن موضعها
قبل أن يرفع قواعدها ابراهيم كان محل احترام ، فقد ذكر
المسعودي أن موضع الكعبة كان ربوة حمراء وكان العرب
يحترمونها . والذين يرجعون عمر الكعبة إلى ما قبل ابراهيم
يقول بعضهم إنه كان بمكانها معبد قديم للعائلة تلاشى أمره
قبل وصول ابراهيم إلى تلك الجهة ، فلما بناها ابراهيم أخذ اليهود
يتعبدون فيها على دينه ، وبالع أعراب النصارى في احترامها

ووضعوا بها الصور والتماثيل كما وضعوا على سطحها أصنامهم
وأوثانهم يعبدونها ويتقربون إلى الله بعبادتها إلى أن جاء رسول
الله صلى الله عليه وسلم فأمر بإزالة الأصنام ومحو الصور .
وكانت الكعبة أيام الجاهلية معقد آمال الناس من جميع بلاد
العالم يحجون إليها في أشهر معلومات .

وقد ذكر لبيب بك البتانوني في رحلته الحجازية ، أن قبائل
العرب كانت تجتمع قبل الحج : أهل الشمال في بدر ومجنة بمر
الظهران على مرحلة من مكة ، وأهل الجنوب في ذى المجاز على
مرحلة من عرفة ، وأهل الشرق في عكاظ بين قرن المنازل
والطائف ، وقد اتخذها العرب سوقا بعد عام الفيل ثم أبطلت
اكتفاء بسوق عرفة ومكة ، وكانت هذه الاسواق بمثابة معارض
للتجارة ومؤتمرات للأدب ومكارم الأخلاق . وأظنك تتفق
معى في أن العرب كانوا من أسبق الأمم إليها ، بل لقد سبقوا بها
الحكومات المتمدينة بقرون عديدة . نعم سبقهم اليونانيون
إلى مثل هذا الاجتماع في الاجتماعات التي كانوا يقيمونها لأغابهم
وأخصها تلك التي كانت في أوليمبي في القرن الثامن قبل المسيح .
وإذن فقد كان العرب من أوائل الدول في الاجتماع ، بدءوه
في الجاهلية بعكاظ وذى المجاز يحاضرون فيهما ويذاكرون ،
وعقبوا بدار الندوة عند الكعبة ، فلما جاء الاسلام كان رسول

الله عليه الصلاة والسلام يذهب الى عكاظ يدعو فيها الى الاسلام ، وكانت الدعوة الى المساجد تقريراً لفكرة الجمع والاجتماع بين المسلمين يدعون الى الهدى ودين الحق ليظهره الله على الدين كله .

وقد بقيت للكعبة مكانتها في الاسلام بل لعلها زادت ، لأنها تطهرت من الأصنام التي كانت توضع على سطحها والصور التي كانت تتعلق بها ، بل من اليقين انها زادت رفعة واحتراما في نفوس العالم أجمع والمسلمين خاصة فقد صارت قبلة الصلاة لهم جميعا .

لقد بدأ المسلمون يصلون وقبلتهم بيت المقدس ، فجعل الله الكعبة قبلتهم في السنة الثانية للهجرة ونزلت الآية « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

ولعلك اذا توجهت الى المدينة المنورة اترى آثارها فإنك تجد من بينها « مسجد القبليتين » وهو على هضبة مرتفعة على مسافة بضعة كيلو مترات شرقي غربي المدينة ، وهو مكون من قسمين بقسمه الداخلي محراب نحو الكعبة بمكة وفي قسمه الخارجي محراب نحو المسجد الأقصى بالشام ، وهو الذي كان رسول الله صلى فيه قبل تغيير القبلة ذلك التغيير الذي كان موضع تساؤل اليهود ، فقالوا فيما بينهم : « ما ولاهم عن قبلتهم

التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله »

بل الذي لا شك فيه ان الله سبحانه وتعالى أراد أن يجمع القلوب حول الكعبة فجعل الطواف بها فرضا من فروض الحج إلى بيت الله الحرام لتجتمع حولها الأرواح والنفوس فترى الناس على اختلاف درجاتهم يطوفون حولها محرمين لا فرق بين غنى وفقير ، وكبير وصغير ، يطوف حولها الملوك كما يطوف الرعايا ، ويطوف الشيوخ كما يطوف الشبان ، والأغنياء مع الفقراء ، والأصحاء مع الضعفاء ، فأنت تجد حولها صورة كاملة ونموذجا حيا للحياة الدنيا بكل ما فيها من أحاسيس ووجدانات .

ولولا أن الكعبة بناها ابراهيم ثم جاء محمد فاشترك في بنائها وأزال منها الصور وهدم ما كان فيها من التماثيل وما على سطحها من الأصنام ، لولا أنها احيطت برعاية الأنبياء من بدء انشائها أفكانت تكتسب هذا التقديس وهذا الاحترام الباقي على الزمن ؟ !

لقد اقلق اليهود هذا الاحترام فبدلوا جهودهم في هدم الكعبة كما حاول بعض الامراء تحويل الناس عنها فما نجحوا ، فهذا تبع بن حسان ملك حمير اليهودي يريد هدمها فيمنعه أصحابه من اليهود عنه فيعدل ، وهذا يهودي آخر يحاول مرة أخرى

ذلك فيمنعه يهود من هدمها وهم حانقون من وجودها ، ولكن
هكذا أراد الله حمايتها وبقاها خالدة التقديس والاحترام
سواء أكانت تلك الحماية بالسيف أم بالإلهام ، وهذا أبرهة ملك
الحبشة استعمر اليمن وبني في صنعاء « القليس » ليحج الناس
إليها ، ثم اتجه إلى مكة ليهدم الكعبة فأرسل الله إليه طيرا أبابيل
ترميه وجنده بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف ما كول ،
فهلك جيشه وبقيت الكعبة على روعتها وجلالها .

وهذا أبوطاهر القرمطي بنى فى العراق دارا ليحج الناس
إليها وحارب الحجاج القاصدين إلى مكة وقتل الكثيرين منهم
ودخل إلى الحرم فاعتدى على من فيه وتقدم إلى الكعبة فاعتدى
عليها وخلع من جدارها الحجر الأسود الذى وضعه رسول
الله بيده الشريفة وذهب به إلى بلاده وبقي الحجر لديه حتى
مات دون أن يستطيع تحويل الناس عن الكعبة ، فاضطر
أهله إلى إعادة الحجر الأسود إلى مكانه . وكانت غطفان قد
بنت حرماقبيل الاسلام ليحج العرب إليه فخار بهم زهير بن جناب
ملك العرب حتى قهرهم ، وكل هذا يدل على ما للكعبة فى نفوس
الناس من قديم الزمان من احترام ، وزادها تعظيما تكريم رسول
الله عليه السلام لها ، وكأنى به وهو يطوف حولها وقد نشر
حول أرجائها نورا ساطعا من نوره ، وعظمة من عظمتة

وجلالا من جلاله ، وكأني به وهو داخل من بابها وقد بارك
هذا الباب وكسا داخل الكعبة جمالا من جماله ، وطهارة
من طهارته ، وهدي من هداه .

وستبقى الكعبة على مر القرون يزداد بها المسلمون
تعلقا ما ذكروا موقف النبي في تشييدها ، وما ذكروا موقف
النبي في مالها من قداسة واحترام .

المسجد النبوي

بنى ابراهيم الكعبة بناء يرتفع تسعة أذرع وطوله ثلاثون وعرضه عشرون ، ولم يكن حوله سوى فضاء واسع لا يحده حد ولا يحيط به سياج ، ولا تجاوره دار ولا بناء ، وترك حولها أهله ودعا ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم ويرزقهم من الثرات ، ولم يكن حولها إذ ذاك من الناس أحد سواهم .
وإني لا تخيل اسماعيل وأمه يسكنان في هذا المكان وحدهما إلى جوار الكعبة ، لست أدري والليل قد أسدل ستره أى إحساس يدخل نفسيهما وقد طال عليهما الزمن حتى أخذ الناس يفدون عليهما كما أخذت القبائل تقبل على مكة للإقامة بين شعابها .

وإني كذلك لا تخيل مقامهما ماعسى أن يكون ، وما هيكله وما عسى أن يكون حجمه ، وماذا يحتاجان في هذا المقام ؟ من المسلم به أنهما كانا خلوا من الثروة فلا أثاث ليهما ، وأنهما لم يقيما بناء غير الكعبة يقيمان فيه .

ولقد كان لتوالي القبائل في القدوم الى مكة والاقامة فيها أثره في التبرك بالكعبة كما أسلفنا ، وكانوا يتنافسون في العبادة

حولها وتقديسها ، وقد بلغ هذا التقديس مبلغا لم يبلغه شيء آخر .
ليس من شك في أن الناس يحترمون المساجد التي بنيت
بعدها ويدخلونها خاشعين لله ويمتنعون عن كل ما يخالف
الفضيلة وقوة العقيدة حين يدخلونها ، ولكن أى نسبة بين هذا
الاحترام واحترام الكعبة ؟ ! إن الكعبة هي أول بيت وضع
للناس ، ثم هي بعد ذلك رمز للعقيدة ، ثم هي فوق ذلك الدار
التي يجب على كل مسلم أن يزورها ويطوف بها ، ثم هي مع كل
ما ذكرت رمز اجتماع قلوب المسلمين واتحاد كلمتهم حول الدين
وحول القرآن وما في آياته من هدى ورحمة ، وبيان وحكمة .

لذلك لم يكن - على ما اعتقد - يشغل هاجر وابنها اسماعيل
لاقامتهما حول الكعبة يعبدان الله ما أمرهما ، ويستلهمانه
الهدى والسداد ، والتوفيق والرشاد .

ولم يكن مرور الزمان قبل قصي بن كلاب من جهة
والاسلام بعده من جهة أخرى دخل في تغيير ما حول الكعبة
وان كان قد حدث تدخل في أمر الكعبة نفسها ، فما كان هناك
مسجد وانما كان هناك مصلى « مقام ابراهيم » وما كانت الصلاة
على النمط الذي يصلى به المسلمون اليوم ، فهذه الصلاة
من وضع الاسلام وحده ، وكانت الصلاة لديهم قاصرة على
الطواف حول الكعبة .

فلما غلب قصي بن كلاب بنى خزاعة على أمرهم واستولى
على مكة وعلى الكعبة لم يكن حول الكعبة دور ولا مساكن

ولم يكن قصى يرى ضرورة لوجود ذلك الفضاء - حولها ، ماذا يصنع الناس به وهم لا يحتاجون لغير الطواف ! ، فدعا أهله للبناء حولها ، وكانوا يرون ان البناء بجوار السكبة جرأة على قداستها واعتداء على احترامها ، فمن ذا الذى يجرؤ ان يبنى فى فضاءها لتكون له حوائط بقرها ؟ لكنه قال لهم بعد ان انتصروا على خزاعة : « إن سكنتم حول البيت هابتكم الناس ولم تستحل قتالكم والهجوم عليكم » وضرب لهم الأمثال فبنى دار الندوة ثم قسم بقية الفضاء بين قبائل قريش ، فبنى القرشيون دورهم حولها واتخذوا لمنازلهم طرزا تختلف عن طراز السكبة ، فجعلوها دائرة والسكبة مربعة إجلالا لها عن التشابه ، وجعلوا ارتفاع منازلهم ضئيلا لا يسمو إلى علياء السكبة ، وجعلوا أبوابهم متجهة نحوها لكي يستمتعوا وهم فى دورهم بمشاهدة عظمتها ومظهرها ، ويتفادون أن يكون بينها وبينهم حجاب ، وظلوا يتلاصقون بفضائها حتى ضاق الفضاء حولها ولم يتركوا منه سوى ما يسمح بالطواف للطائفتين ، ولم يكن الأمر حتى فجر الاسلام ليدعو الى قضاء فسيح ، فلقد وصل حال المسلمين بعد الهجرة وقبل الفتح أن خافوا من الجهر بالصلاة حول السكبة ، فقد كان الجهر بها ماثارا لاضطهاد خصوم الاسلام ، ولم تنقشع هذه الغمامة حتى عاد رسول الله صلى عليه وسلم من المدينة الى مكة ومنع الهجرة بعدها .

لقد كان العرب قبل الاسلام لا يعينهم إذن من أمر
الفضاء سوى ما يسمح بطوافهم أو جلوسهم في الصباح أو
المساء يستظلون بظلال الكعبة ويتحادثون في أمور دينهم
ودنياهم ، فلما بنى قصى دار الندوة خصها بفتة من العرب وبقى
العامة يتلاقون حول الكعبة كما كانوا يتلاقون منذ الأيام الاولى.

وجاء الاسلام ووجبت الصلاة وأخذ المشركون
يطاردون المسلمين في صلاتهم ، فعمد هؤلاء إلى الصلاة
في دورهم ، فلما فتح الله للمسلمين وأمر رسول الله بمنع الهجرة
بعد الفتح جهروا بصلاتهم حول الكعبة ، ولكن ما عددهم ؟
لقد كان سكان مكة قليلين جدا في ذلك الوقت ، فإن الكثير
من المسلمين كان قد هاجر الى المدينة في إثر رسول الله ، كما ان
كثيرا منهم انضموا إلى لواء الجيش الاسلامي الذي جاهد
في سبيل إعلاء كلمة الله وسبيل نصرة الدين حتى لقد اندفعوا
في الحرب في خلافة ابى بكر الصديق رضى الله عنه وجاهدوا
الفرس والروم حتى غلبوهم وفتحوا ديارهم ، لذلك لم يشعر
المسلمون بحاجة الى توسيع المطاف في مدى سبعة عشر عاما
بعد الهجرة أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

ولم يكن هذا المطاف قبل الاسلام يدعى مسجدا فأطلق عليه
المسجد الحرام بعد الاسلام ، وقد سمي بهذا الاسم في مواضع كثيرة من

القرآن الكريم « سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى » « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام »

هذا المسجد الذى بدأ وهو بضع قصبات لا يجد من يملؤها أو يستر بعضها من المصلين قد غدا الآن حوالى الأربعة الأقدنة فضاء خالصاً يتزاحم فيه المصلون حتى لتجد من العسير جداً أن تمر فيه بقدميك ، ولقد يبلغ به الزحام أن تملأ ابوابه حتى ليستحيل عليك أن تمر فيها ، ولقد تقف أوقاتاً طويلة حتى تجد منفذاً تدخل منه أو تخرج .

ترى ماذا يقول أبو بكر لو صح له الآن أن يشهد هذا المنظر الجليل ؟ بل ماذا يرى فى هؤلاء المتزاحمين وهم لا يبلغون الا قليلاً من المسلمين إذا ما هيء له أن يذكر أنهم كانوا فى صدر الإسلام اذا غاب منهم واحد ذكره ؟ أفيستطيع المرء مهما أوتى من اليقظة وصدق النظر والفراسة أن يتعرف الى قليل أو كثير من هؤلاء الناس ؟ لست أحدثك عن الشمس المحرقة تسلط نارها عليهم أيام الصيف وهم يقيمون الصلاة لا يجرهم حر ولا برد ، ولا يمنعهم زحام ! انما أحدثك عن أيام الصلاة الأخرى فى الفجر أو فى الظهر أو فى العشاء ، وأحدثك عن أولئك الذين يجعلون المسجد الحرام

سكننا لهم لا يغادرونه ، وعن الجوع الحاشدة التي تلقاها كلها
دخلت في أى وقت من نهار او ليل .

ماذا يقول اليوم أولئك المسلمون الذى عارضوا عمر
الخطاب عند ما أراد ضم دورهم الى المسجد الحرام وهو
يدفع لهم ثمنها من بيت المال ؟ أفكانوا يفرحون ويطربون
لهذا النصر العظيم فيقدمون دورهم حسبة وقرابانا لله تعالى ؟
هذا أغلب ظنى ، فلقد توالى على المسجد الحرام من إهبات
المسلمين ما جعله أرقى ما يكون بناء ، وأوسع ما يكون فضاء ،
وأجمل ما يكون نورا وضياء ، وما هؤلاء بأكثر إسلاما من أولئك
وإنما لعلمهم وقد طلب أمير المؤمنين اليهم دورهم قد أخذتهم
العزة وظنوه يريدونها عنوة فلم يخضعوا له إلا قبرا ، أما
الآخرون فقد نزلوا عنها فى سبيل الله وحبها لدينه .

ماذا يقول قصى بن كلاب وقد زين لقريش أن يبنوا
دورهم حول الكعبة لا يتركون حولها إلا مطافا ، فهل لو علم
شيئا من حال الكعبة اليوم أفكان ينصح أهله بالبناء حولها ،
وقد كان يتفانى فى نشر دين الله ورفع لوأته ؟ ؟

هذا المسجد الممتد طولا وعرضا ، المربع الاضلاع ، المرتفع
الحوائط ذو البواكى والعمد ، الممتلىء بالثريات الكبرياء ،
الباهر المظهر ، كان فى صدر الاسلام صغير الحجم ضئيل

المساحة فلما هاجر النبي وصحبه تركوه كما كان وبقي على حاله إلى أن ولي الخلافة عمر بن الخطاب وكان بالمدينة وأصيبت مكة بالسيل العظيم ، سيل أم نهشل ^(١) ودخل السيل إلى المسجد الحرام واقتلع مقام إبراهيم الخليل من موضعه ونقله إلى أسفل مكة ، فلما جف الماء وجد المقام وقد ترحزح فأعيد إلى موضعه ، وأبلغ الأمر إلى عمر بن الخطاب فباله الأمر وجاء رضى الله عنه مسرعا إلى مكة المكرمة ، وكان أول ما قام به أن يحقق موضع حجر مقام إبراهيم ، وأمر بإعادته إلى موضعه واطمأن إلى ذلك .

رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إذ ذاك أن المسلمين قد زادوا ، وأن المسجد يزدحم بهم وقت الصلاة فلم يربدا من أن يأمر بالدور التي حوله أن تهدم ويضم مكانها إلى المسجد الحرام ، رأى رضى الله عنه بواسع حكمته أن أمر جموع المسلمين أهم من أمر أفرادها ، وهكذا تعمل الحكومات للجماعات ، فراعى بذلك مصالح الجماعات ومصالح الأفراد ، وأى مصلحة لجموع المسلمين وأفرادهم أهم من مصلحة اجتماعهم في الصلاة ، فهذا المسجد تنتفع به الجماعات والأفراد على السواء ، وما الجماعة إلا عدد من الأفراد .

(١) سمي بسيل أم نهشل لانه اجترف أم نهشل بنت عبيدة ابن سعيد بن العاص ابن أمية بن عبد شمس وماتت فيه فسمى باسمها .

لكن أصحاب الدور قد جزعوا لهدمها وضمها، وعارضوا في ذلك مع أنه رضى الله عنه كان يشتريها ويدفع ثمنها، ولهذا أبوا أن يبيعوا وأن يقبضوا فأمر بها أن تقوّم وتودع أثمانها في خزانة الكعبة، ثم أمر بها أن تهدم ويبقى الثمن أمانة لأصحابه من شاء أخذه فسرعان ما أخذوه، وما نصحهم به إذ ذاك قوله «لقد نزلتم بفناء الكعبة وبنيتم به دوراً وأنتم لا تملكون هذا الفناء، وما نزلت عليكم الكعبة في سوحكم وفنائكم» وبنى رضى الله عنه حائطاً حول المسجد كان أقصر في القامة قليلاً فكان أول من أحاط المسجد الحرام بالبناء.

وهكذا كان حزم عمر وعزمه أول إرادة وجهت لبناء الحرم المكي، وهكذا كان عمر حازماً في كل ما قال وكل ما فعل.

توالى الاسلام في الانتشار، وتوالى المسلمون في الازدياد، وتكاثر المصلون فلم يك بد على مرور الايام من زيادة مساحته، وإلا فكيف يمكن أن يصلى سبعون ألفاً أو يزيدون في المسجد الذى أمر به أمير المؤمنين عمر فلم يك بد لعثمان بن عفان ثم لعبد الله بن الزبير ثم لعبد الملك بن مروان ثم لابنه الوليد، ثم لأبى جعفر المنصور، ثم للخليفة محمد المهدي العباسي، لم يكن هؤلاء جميعاً بد من توسيعه حتى بلغ الكمال والجلال في أيام المهدي.

لقد حج الخليفة محمد المهدي العباسي سنة ١٦٤ من الهجرة
ووجد الكعبة في جانب من المسجد ، لا في وسطه كما هي اليوم
فلم يعجبه وضعها وعزم على هدم الدور المجاورة لها من الجانب
الآخر لتقع الكعبة في وسط المسجد ، فأمر بالمهندسين فتشاوروا
فيها بينهم وقرروا أن ما اعتزمه غير ممكن ، لأنه يجعل المسجد
ليس بمأمن من السيول ، وقالوا « إن وادي مكة به سيول قوية
العزم ونخشى إن حولنا الوادي من مكانه ألا يتم لنا ما نريد »

ولكن لمن يقول المهندسون ذلك ؟ إنه رجل آمن بالله ووفقى
في هذا الايمان ، ثم هو يبتغي عملا صالحا للمسلمين يعود بالنفع
الخالص لدين الله ، ويخلد له ذكرا حسنا عند الناس ، وهو قوى
العزم لا تقف العقبات في طريقه ، فقال لهم لا بد لي من توسيع
المسجد حتى تكون الكعبة في وسطه ولو أنفقت فيه جميع ما
في بيوت المال ، فرضخ المهندسون لأمره ونفذوا عزمه وهدموا
ما جاور الكعبة من الدور ، وبلغ ثمن الذراع الواحد منها خمسة
وعشرين دينارا ، ولم يقتصر على ذلك ، بل أبدع في تنسيقه
وان كان لم يستمتع بهذا الابداع ، فقد عاجلته المنية وتم في عهد
ابنه موسى الهادي ، وهكذا كانت ثمرة زيارة المهدي كشجرة
الزيارات التي سبقتها جميعا ، وكانت جهود المهندسين الذين
نفذوا مشيئته أزخر الجهود نفعا .

مَا ذَا الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

لست معترضا أن أوسع شرح محتويات المسجد الحرام ،
فلو أنى فعلت ذلك لمألت مجلدا ضخما ليس لدى من الوقت ما
يكفى لإعدادة ، وقد سبق أن قلت إنه ليس من المهم إحصاء
المصاييح التي يتألق نورها ليلا في أرجائه الواسعة ، ولا إحصاء
قطع البلاط التي رصف بها ، وإنما أضع تحت بصرك لمحة ترسم
في خيال المطلع صورة يدرك منها ما لا بد أن يلاقيه من هيبة عند
ما يصل الى هذه الديار المقدسة ، وما عسى أن يشاهده من
جلال هذا المسجد العتيق ، ولكنني لن أترك القارئ خالي
الذهن من محتويات هذا الحرم بعد أن تحدثت طويلا عنه وعن
تاريخه ، وعن الكعبة التي تتوسطه خصوصا أن بالمسجد أشياء
لها عظمتها ولها من التاريخ والشهرة ما يدعو إلى الاطّنباب فيها
والتنويه بها .

واذن فلا بد أن أضع أمام الأنظار مساحة المسجد الحرام
الذي بدأ صغيرا ، واستمر ينمو على الأيام حتى بلغت مساحته
الآن أربعة أفدنة وربع تقريبا ، وليس هناك بد من أن أرسم
لك صورة عامة للمسجد وما صار اليه ، ومن أن أتحدث عن
مقام إبراهيم صاحب هذا المؤسس العظيم الذي جمع حوله

ملايين من المسلمين بعد الاسلام وغير المسلمين قبله ، ولا بد أن أتحدث عن زمزم تلك العين الجارية التي تسقى آلاف الناس في كل عام منذ زمان طويل ، وملاّت شهرتها الآفاق .

وسأتحدث لك عن دار الندوة وعن مقامات الأئمة وعن الحطيم ، وعن الإضاءة في الحرم ، وعن منابره ، وسأجعل من نفسى رساما يصور هذا البناء الجليل ، وسأقصد في القول ، وسأجمل في البيان ، وسأقتصر في الذكر على رسم صورة تعرف منها أن الحرم يضئ بالكهرباء ، ولن أضيق بذكر مسدى هذا الفضل . وستعرف منى أن للحرم مئار تحت بواك مرصوفة بالبلاط ولكنك لا تنتظر منى أن أدخل في تفصيل هندسى أو أضيع وقتك في وصف الوضع الفنى للبناء ، ولا تنتظر منى كذلك أن أذكر لك عدد أعمدة الحرم ومحاسن أبوابه ، فليس هناك ما يدعو لأن أخوض في بحث جدلى عن عدد ابواب الحرم ، وهل اسمها أبوابا أو نوافذ ، ويكفى أن تعرف أن للحرم ستة وعشرين بابا ولبعض الأبواب أكثر من فتحة ، كما أن لبعضها ثلاث فتحات ، ولبعضها خمس فتحات ، وقد بلغت الفتحات جميعا سبعا وأربعين .

ليس يفيدك كثيرا أن تعرف عدد أبواب الحرم ، ولكنك ستدرك بداهة أنها كثيرة ، فإن مسجدا مساحته أربعة افدنة

وربع متصل بعدة شوارع لا مناص من أن تكون له عدة ابواب . على أن أكثر هذه الابواب شهرة هو ابواب : السلام ، وباب العمرة ، وباب ابراهيم ، وباب على .

وباب السلام هو الباب الذى تدخل منه الى الحرم أول ما تدخله عندما تعترم الطواف ، وهو باب الحرم الذى تدخل منه للتحية والسلام ، وهو معروف ايضا بباب بنى شيبه ، وكان قديما يطلق عليه باب بنى عبد شمس .

أما باب النبى فهو الباب الذى كان يخرج منه عليه السلام الى منزل زوجته خديجة رضى الله عنها .

وقد سبق ان قدمت أن المسجد الحرام مربع الشكل تقريبا محاط من الداخل بأعمدة وبواك ، مسقوف الجوانب ، له وسط « صحن » واسع الأرجاء لا سقف له ، فهذا البناء الجميل ممتلىء بهذه الابواب فى جميع جوانبه ، وهذه الابواب تزدحم ازدحاما لا نظير له فى أوقات الصلاة ، ولقد اعتدت اثناء إقامتى بمكة ان أدخل من باب العمرة لقربها الى منزلى وأخرج منه أو من أحد الابواب المقابلة للتكية المصرية حيث كنت أقضى فيها أكثر الوقت ما بين المغرب والعشاء ، فما كنت أشق لنفسى طريقا إلا بشق النفس ، وما كنت أصل الى الطريق الا بعد وقت

طويل ، ولقد تأخرت قليلا فى يوم من الايام وقت صلاة الظهر ، ثم توجهت الى باب العمرة وكانت الصلاة على وشك القيام فاستحال على الدخول ، واضطرت الى الوقوف بالباب حتى انتهى الناس من صلاتهم وبدءوا ينصرفون فدفعت بنفسى بين أفواجهم حتى دخلت بمجهود عنيف بعد الظهر بنصف ساعة هذه أمم حاشدة وافدة من كل صوب من أنحاء المعمورة يحجون بيت الله ، فهم متزاحمون باذلو النفوس فى اغتنام الفرصة لقضاء كل أوقاتهم فى العبادة ، وهم يرون ان هذه العبادة لا تكون إلا بالبقاء فى الحرم المقدس طوال الاوقات والواقع أنه ليس أشهى للمقيم فى مكة من قضاء وقته كله فى المسجد الحرام ، ولولا طبيعة الحياة التى تستلزم الطعام والنوم والترىض والزيارة لما غادر أحد من الحجاج الحرم لحظة واحدة .

إن بناء الحرم جميل مزخرف ، نظيف متسع الأرجاء ساطع الضياء ذو جمال وبهاء ، ثم هو قبل ذلك بيت الله وسياج الكعبة وهو أرض زمزم ، وأول مقام لإبراهيم ، وقد كان لترك وسطه دون سقف حكمة بالغة جعلت من هوائه نسيما عليلا ينعش النفوس فى أوقات الحر الشديد . وما كان يمكن أن يغطى هذا المسجد بأى سقف وإلا لاختنقت فيه أرواح آلاف الداخلين

مقام ابراهيم - هو آية بيّنة من آيات الله في الأرض، قال تعالى « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين » فيه آياتٌ بيّناتٌ مقامُ ابراهيم ، وقال أيضا « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » وهو أول ما أسس من مذبّحات المسجد الحرام وهو الحجر الذي يصلى عنده الأئمة ، وهو الذي أقامه ابراهيم عليه السلام عند بناء البيت ، والظاهر أن المقصود من الآية الشريفة هو المصلى وليس الحجر ، لأن الحجر بطبيعته حاله لا يتسع لإقامة الصلاة عليه ، فقد صلى عليه الصلاة والسلام خلف المقام فكان المقام بينه وبين البيت ، وربما كان الحجر المعروف إلى الآن بمقام ابراهيم موضوعا في مكان قيامه علامة عليه .

لقد اختلف المفسرون في تحديد مقام ابراهيم الذي ورد ذكره في القرآن الشريف، فقال بعضهم إنه يشمل مناسك الحج وخصصه بعضهم بالحجر الذي قام عليه ابراهيم وقت بناء الكعبة ، وقال آخرون إنما هو مكان صلاة النبي عليه الصلاة والسلام خلف الحجر ، وفي رأينا أن هذا أصح ، لأنه ليس هناك ما يسند أولئك الذين قالوا بأن المقام هو الحجر كله كما أن قصر المقام على الحجر يجعل من المتعذر تنفيذ الأمر الكريم باتخاذ مصلى ، لأنه كما قلنا صغير الحجم .

إن هذا المقام هو من أبرز ما في الحرم من الآثار ، وهو طبعاً ليس محل مقارنة مع آثار أخرى إذا استثنينا البيت العتيق « الكعبة نفسها » ذلك لأن أقدم الآثار عهداً هو أقدم من الكعبة نفسها . أليس قد قام عليه إبراهيم عند بناء الكعبة ؟ ثم هو من الآثار التي أبقي الله عليها وحفظها من العدوان والحدثان كما حفظ الحجر الأسود ، وعلى الرغم من أن السيول قد أحاطت به ونقلته من مكانه فإنه قد أعيد إليه . بل قد أعيد في مكانه الأول ، ولا يزال ماثلاً في أذهاننا ما حدث به الأذى من أنه لما طغى سيل أم نهشل على الكعبة وأخذ المقام وأبعده عن مكانه ووصل الخبر إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أسرع إلى مكة وأعادته إلى مكانه بعد أن استوثق منه .

والمقام موجود تحت قبة عالية يرتفع على أربعة أعمدة دقيقة من الحجارة ، بها أربعة نوافذ من الحديد مدخلها من الجهة الشرقية ، ويقع خلفه المصلى ، وهي من خرقة من باطنها بلون ذهبي جميل .

زمزم — مياه زمزم معروفة ولها شهرة واسعة ، قيل فيها إنها مياه معدنية صالحة للشرب ، وقيل إنها في حاجة إلى إجراءات صحية تجعلها صالحة للاستشفاء ، ومع ذلك فإن حالتها الحاضرة

موضع ثقة جميع المسلمين وتقديسهم ، وموضع آمال المرضى منهم ، فهي مباركة للأصحاء شافية للمرضى . وقد بلغ من تقديس المسلمين لها أن جعلوها مشروبهم طوال وجودهم بمكة ، بل إنهم تارة يشربونها بدون ظمأ لمجرد إزالة الأمراض والآلام وهم يسعون كل السعي للاستحمام بها كلما استطاعوا ، والتوضؤ بها ما أمكنهم ، وهم لا يعتقدون أن بها مواد معدنية شافية ، بل يشربونها لأنها مباركة . أليست قد نبعت لإرواء ظمأ إسماعيل وإسماعيل نبي وابن نبي ، فكيف لا تكون مباركة . ولذلك يهتم الحجاج جميعاً بحملها إلى بلادهم عند عودتهم يقدمونها لذوى قرباهم والمخلصين من أصحابهم .

لست أدري ماذا تقول عن أيها القارىء إذا عرفت أننى أقدر كثيراً معتقد هؤلاء المسلمين فى شأن زمزم والتبرك بمائها . ولعلمهم معى يقدرون تقديسها هذا التقدير لما اكتشف وجودها من ظروف هى مقدسة فى ذاتها .

لقد قدمنا عند الحديث عن انشاء الكعبة أن إبراهيم عليه السلام ذهب بإسماعيل ووالدته إلى مكانها وإسماعيل رضيع وتركهما وانصرف ، فقفت أم إسماعيل فى أثره تقول له « يا إبراهيم اين تذهب وتركننا فى هذا الوادى الذى ليس فيه انيس ولا شئ ؟ فلم يلتفت اليها ولم يرد عليها ، فسألته : هل الله

جل جلاله أمرك بهذا ؟ فقال نعم ، ثم استمر في طريقه إلى أن
اختفى عن نظرها وقال « ربنا انى اسكنت من ذريتي بواد غير
ذى زرع عند بيتك المحرم . . » وكان مع زوجته بعض ماء ظلت
تشرب منه حتى نفذ وظمى اسماعيل وبلغ به الظمأ مبلغا ألما
وآلم عواطفها وهى أم أمام وحيدها ، فانطلقت تبحث عن
نبع ماء أو انسان لديه ماء ، وكانت فى نفس الوقت تفر من النظر
إلى وحيدها وهو يتلوى من الظمأ فى وقت لا حول لها فيه ولا
قوة ، ثم أخذت تتردد بين جبهلى الصفا والمروة حتى قطعت
ما بينهما سبع مرات ، وقيل إن هذا هو السبب فى السعى بين
الصفا والمروة حتى انبعث نبع زمزم وسقت ابنها منه .

وهنا أروى لك قصة جميلة عن زمزم كتبها « حسين
ياسلامه » فى كتابه « عمارة المسجد الحرام » قال :

لما وقفت ام اسماعيل على الصفا ثم هبطت منه حتى اذا
بلغت الوادى رفعت طرف ذراعيها ثم سمعت سعى الانسان
المجهد حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت
هل ترى أحداً ، وفعلت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس قال
النبي صلى الله عليه وسلم فذلك سعى الناس بينهما ، فلما
أشرفت على المروة سمعت صوتا فإذا هى بالملك عند موضع
زمزم فيبحث بعقبه أو مال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تخوضه

وتخفيه بيدها هكذا أى تجمععه ، وفي حديث علي فجعلت تحبس الماء ، فقال دعيه فإنها رواء وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف ، قال ابن عباس قال النبي عليه السلام « يرحم الله أم اسماعيل لو تركت » أو قال « لو لم تغرف من زمزم لكانت زمزم عينا معينا » قال شربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك لا تخافوا الضيعة فان هذا بيت الله لهذا الغلام والله لا يضيع اهله . . . الخ

وليس غريبا أن نقرر أن زمزم هي الأصل في قيام مكة في هذا المكان ، فما كان يمكن ان يسكن احد فيه دون ماء . وكان أول من جاور اسماعيل هناك آل جرهيم ، فلقد مر منهم جماعة فشاهدوا الماء فاستأذنوا أم اسماعيل في أن ينزلوا الى جوارها فأذنت لهم ، وهكذا بدأ عمران منطقة مكة .

وزمزم عين لا تجف ، وان كانت قد ردمت ردحا من الزمن وتهدم بئرها الا انها اعيدت لمكانتها الاولى ، وهي معين لا ينضب ، تحلو كلما زاد أخذ الماء منها ، وهذا أمر مشاهد في ذاته ، فإن استعمال الماء يكون قليلا في أيام السنة الى أن يبدأ موسم الحج فيزيد طلب الماء ، ولهذا نجد ماءها يحلويوما بعد يوم في أيام الحج .

ولعل من المناسب أن نذكر هنا أن هناك مشروعا على

وشك النفاذ يقوم على ترشيح مياه زمزم بطريقة صحية
لاستعمالها للاستشفاء كغيرها من العيون المعدنية في البلاد
الغربية نظرا لما انضح من صلاحيتها لهذا الغرض .

قلت آنفا انى أعتقد مع المعتقدين فى قدسية ماء زمزم
بشكها الحالى ، فى مياه نبعت لنبى ابن نبى ، ومع ذلك فقد
ورد فى البخارى من حديث أبى ذر الغفارى رضى الله عنه
قال « ما كان لى طعام الا ماء زمزم اجتزى به ثلاثين ما بين
يوم وليلة فسمنت حتى تكسرت على بطنى » وجاء فى صحيح
مسلم من حديث أبى ذر « إنه طعام طعم » وقال ابن عباس
« خير ما على وجه الارض ماء زمزم »

وقد ورد فى الرحلة الحجازية للمرحوم لبيب البتانونى بك
أن هذه المياه فيها فوائد معدنية ، وأن قليلها يفيد وكثيرها يضر
وهو يرى أن خدمة العين يبالغون فى فوائدها ترغيبا للحجاج
فى تعاطيه . وقد تعرض لنقد البتانونى بك فى رأيه الاستاذ
حسين باسلامة نقدا شديدا ، ولكنى لا أرى لهذا النقد الشديد
محلا ، لأن البتانونى بك لم يبعد زمزم عن الفائدة .

وعلى أى حال ليس من شك فى أن زمزم من العيون
الجارية العظيمة الفائدة ، الذائبة الصيت فى أنحاء العالم .

مقامات الأئمة - لكل إمام من أئمة المسلمين الاربعة « أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل » مقام بالحرم الشريف يصلى فيه تابعوه ، وأحسن تسمية لهذه المقامات « المواقف » حتى لا يظن أحد أنها بما أطلق عليه عرفا المقام الذى يدفن تحته ولى كريم ، وهذه المقامات أو المواقف أو الاماكن قديمة العهد من بدء الاسلام تقريبا .

محتويات أخرى للمسجد الحرام - يحتوى المسجد الحرام بعدما ذكرنا على « الحطيم » وهو بناء مستدير على شكل نصف دائرة بينه وبين جدار الكعبة أرض معروفة بالحجر ، مرصوفة بالرخام ، وهم يطلقون الحطيم على هذا الجدار المحيط بالحجر ، ويطلقونه على المكان المحصور بين الكعبة والحجر من جهة ، ومقام ابراهيم وزمزم من جهة أخرى .

والحجر هو المكان الخالى المحصور بهذا الجدار ، وبعض هذا الخلاء قد تركه ابراهيم عليه السلام إلى جانب البيت وبعضه كان من المساحة التى بنيت عليها الكعبة ، فلما أعاد آل قريش بناءها تركوا منها هذا الجزء ، وكان الزبير قد أعاد بناءه ولكن الحجاج أعاد إخراجه ، على ما قدمنا .

ويوجد بين باب الكعبة والركن العراقى ثغرة يطلقون عليها اسم « المعجنة » يقولون إنها هى التى كان يعد فيها ابراهيم ملاط البناء .

لقد أطلعنا ولسنا بحاجة إلى أن نقول إن الحرم كان له منبر
فاخر يقوم في وسطه تحت العراء، وله عدة منارات في جوانبه .
وهذا المنبر طبعاً هو الذي يقف عليه الامام حين يخطب
الجمعة، ولست بحاجة إلى أن أتحدث عن بهاء هذا المسجد العظيم
ومظهر المسلمين حين اجتماعهم فيه، ومظهرهم وهم داخلون
اليه من كل باب، ومظهرهم وهم منصرفون إلى دورهم عقب
تعبدهم الطويل كل ليلة، والأضواء تتألق في سماءه وفي جوانبه
فذلك شيء يحل عن الوصف .

سنصلي كثيراً سنصلي الجمعة في الحرم، وسنخرج الآن
للسعى بين الصفا والمروة .

بَيْنَ الصِّفَا وَالْمَرُوءَةِ

الصلاة في الحرم

لقد انتهينا من كل شيء داخل الحرم أول وصولنا إلى مكة كما سبق أن قدمنا، وكان علينا أن نسعى بين الصفا والمروة، ولقد كان الجهد آخذاً منا أبلغ مأخذ، فقال أحد رفاقنا مازحاً: ما علينا لو ذهبنا للراحة، فما السعى بين الصفا والمروة إلا سنة يمكن تأجيلها، فنظرنا إليه شزراً وقلنا: ما في العبادة من مراحة. إننا قد أتينا هنا لنقوم بالواجب والسنة معاً، ومن ذا الذي يصبر على ترك شعيرة كهذه ولو كانت سنة مادام في قلبه حب مولع، وفي نفسه رغبة أكيدة في الاستزادة من شعائر الدين: «إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكرٌ عليم»

قصدنا إلى باب الصفا، وخرجنا منه إلى الصفا، وصعدنا إليه على درجات مبنية منتظمة، وجعلنا البيت العتيق قبالتنا وهللنا وكبرنا ودعونا ثم نزلنا قاصدين المروة، حتى إذا وصلنا إلى العمود

الأخضر هرولنا إلى أن وصلنا إلى العمود الثاني فأعدنا سعيينا
سيرته الأولى حتى وصلنا إلى المروة ، وفعلنا كما فعلنا عند الصفا
ونحن فيما بينهما لا ينقطع لنا دعاء .

وهكذا حتى أتممنا سبعة أشواط ، ووصلنا إلى صالون حلاق
فحلق لنا بعض شعر رأسنا وتحللنا من الإحرام ، وأصبح حلالاً لنا
كل ما كان محرماً .

الله أكبر . لقد قطعنا من رحلة طويلة من مراحل الحج ، وسنصبح
في مكة كأهلها نقيم بينهم حيث ولد رسول الله عليه السلام .

كان حديثنا أثناء انصرافنا إلى منازلنا مع صاحبنا الذي
قال إن السعي بين الصفا والمروة سنة لا وجوب فيها ، فكان
حديثاً هادئاً ، إذ لا جدال في الحج .

قال معتذراً : أنا قلت ما قلته مازحاً وإلا فأى قلب يطاوع
صاحبه على السكوت عن السعي حتى ولو كان مجرد استحياب ،
وما دمتم تريدون المناقشة في هذا فتعالوا نتناهى حماسة
العواطف وما أنتم مدفوعون له من حب العبادة والتفانى
في الاستزادة منها :

ألم يقل الله تعالى « فمن حجَّ البيت أو اعتمر فلا جناحَ عليه
أن يطوفَ بهما ، ومن تطوعَ خيراً فإن الله شاكرٌ عليمٌ »

أفليس معنى هذه الآية الشريفة أن السعى سنة حض الله سبحانه وتعالى على ادائها ولم يأمر جل جلاله بالتزامها ؟

يرى الإمامان مالك والشافعي أن السعى واجب، ومن لم يسع كانت عليه الفدية . ويرى غيرهما أن السعى تطوع وليس على تاركه من وزر ولا فدية . والحقيقة أن المناقشة في أمر السعى بين الصفا والمروءة لا محل لها ، اذ هي مناقشة نظرية ، فليس هناك من يسافر لأداء فريضة الحج محتملا صعاب السفر وكثير النفقة ويذهب إلى المسجد الحرام مأخوذا بجلاله وجماله ثم يفكر بعد ذلك في أن يسعى أو لا يسعى ؟ إن أمر التخلف عن السعى لا يدور بخلد أحد .

ولو لم يكن السعى فرضا بالنص لأصبح فرضا بالإجماع فما من مسلم يصل إلى مكة إلا يسعى بين الصفا والمروءة من جموع الملايين الذين حجوا في مختلف السنين . لذلك لا أجد جدوى لهذا البحث ، بل لا أجد مسوغا له .

لقد كان في شوارع المسعى آلاف من الناس يتزاحمون بينهم العجوز والمرضى والرجال والنساء فما تذر أحد من الزحام ولا حاول التخلف بسببه .

بل إن الذين اشتد بهم المرض قد استأجروا من يحملهم على أكتافه يطوف بهم السبعة الاشواط ومن كان ذا ميسرة سعى أشواطه راكبا سيارة أو دابة ، وما فكر واحد في هذه

المناقشة البيزنطية ولا حاول أن ينتحل الأعذار. إن العبادة في مكة مبعثها حالة روحية لا قبل لأحد على دفعها. بل إن الكشيرين ليؤدون الشعيرة عدة مرات، فمن ذا الذي بلغ به صغار العقل حدا يبحث فيه عن وجوب السعى أو جوازه؟

وإذا قيل إن هناك أناسا يرغبون في الحج ويعجزون عن السعى لمرض ثقيل مثلا فما شأننا بهؤلاء وهم غير مكلفين بالحج لأن حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا.

فمن وجب عليه الحج كان قادرا، ومن كان قادرا فليس له أن يناقش في هذا الموضوع، لذلك تجدني لا أستسيغ مخالفة رأي مالك والشافعي، ولا أتمشى مع آراء الآخرين، واعتقد أن الآية لا تفسر إلا على هذا المعنى، وأما ظاهر لفظها فهو كغيره من النصوص العديدة التي هي الطابع المعروف عن أدب القرآن الذي يتجلى فيه عطف المولى التقدير على عباده.

الصفاء والمرورة مكانان مرتفعان أو لهما في شارع المسعى وثنائهما في آخره يطلق عليهما في العرف «جبلان» والواقع أن كلا منهما مكان مرتفع عن سطح الأرض بأكثر من متر ونصف مستطيل الشكل تقريبا مساحته قرابة عشرين مترا مربعا تقريبا، يصل المرء إليه على درج من درجات السلالم المنزلية، ويفصل بينهما شارع مرصوف طوله أربع مائة متر تقريبا ولا شك أنك تشعر برهبة المكان حين تصعد إليه وحين تنزل منه.

والشارع الموصل بينهما جميل نظيف مرصوف مسقوف لا مشقة في قطعه سبعة أشواط تبلغ ثلاثة كيلو مترات تقريبا إلا أن الحكومة تركته سوقا تجارية ممتلئة بالحوانيت على الجانبين وتركت فيه عمرا للسيارات .

هذا الشارع له قدسيته، وكان يجب أن يكون خاليا من التجارة استكمالاً لوقاره وإفساحاً للآلاف الذين يرتادونه كل يوم . وكان يجب ألا تمر به السيارات حتى لا يتعطل السير فيه أثناء السعي وحتى لا يتعرض المارة للخطر وهم مشغولون بالعبادة ، وهو للعبادة فيجب أن يبقى للعبادة ، ولا شيء غير العبادة أما أن يترك هكذا يمر فيه الساعون من جانب ويجلس التجار به من جانب ويمر الشارون بين هذا وذاك فأمر يجعل السعي فيه شبه عسير ولولا شغف الناس بالسعي والعبادة واندفاعهم إليه عن رغبة لكان المرور معطلا لهذا العمل العظيم .

لقد ورد في بعض المراجع ان الصفا مرتفع عن الأرض ثمانى درجات، وفي كتاب ابراهيم رفقى باشا أنه مرتفع عن الأرض أربع درجات ، وفي غيره أنه مرتفع عن الأرض درجتين فقط . والعلة في ذلك ظاهرة فإن ردم الشارع قديما ورصفه قريبا قد رفعا من مستواه وانقصا من عدد درجاته وذلك بالطبع ما هون على الحجاج السعي ، ولعل ارتفاعه القديم هو الذى جعل اسمه عرفا « الجبل » لعلوه فيما مضى .

بهذا تذوقنا العبادة والخضوع، وزدنا إيماناً وخنوعاً لله مالك
المملك ذى الجلال .

ما أظن شخصاً يذهب إلى الحجاز ويستكمل هذه الشعائر
ويفعل ما يفعله الناس جميعاً على اختلاف درجاتهم وأعمارهم
ويذكران الناس عند الله سواء ، وأنه لا فضل لعربي على عجمي
الا بالتقوى ، وان كثيراً ممن نراهم حناة عراة خير عند الله
آلاف المرات من ذوى المال واليسار ، إلا صفت نفسه وهذبت
واستضاءت بنور الإيمان واليقين .

ورب فقير معدم هو عند الله أعلى مقاماً من غنى موسر
يجمع المال ويكنزه أو يحـرزـه لا ليـجعل منه حظاً للفقراء
والمساكين ، وانما ليـجعل منه سبيلاً للتسـاطـع عليهم والتشـكـيل بهم
والتعالى عليهم واذا لهم بغير حق .

لقد وصلنا إلى منزلنا بعد صلاة الفجر ، فلنستريح قليلاً ، فقد
جاهدنا جهاداً متصلاً منذ صبيحة هذا اليوم إلى صبيحة اليوم
التالى وقد اتممنا واجبنا وما أسعد المرء إذا آوى إلى مضجعه وهو
يشعر أنه قد أدى واجبه فى اليوم الذى فات ، فخير أمنية للمرء
فى حياته أن يعيش وقد عرف التزاماته فأداها ، وفرائضه فقام
بها ، ونام وهو معتقد أن الله راض عنه ، وأن عباد الله ليس لهم
عليه موجدة

لقد كان وقتنا بمكة ضيقاً قبل الحج ، فقد وصلناها قبله

بعشرة أيام ، وكان علينا أن نؤدى مناسكتنا ، وأن ندرس أصول هذه المناسك ، وأن نؤدى واجبات أخرى دينية وغير دينية ثم إن الوقت فى ذاته كان موقوتا بمواعيد الصلاة من الفجر إلى العشاء . لذلك عجلنا بما لم يكن من دراسته بد ، واستمهلنا أنفسنا إلى أن نعود من منى بعد العيد لندرس ما بقى علينا من عادات الناس هناك ومعاملاتهم ، ولم يكن لدينا مع الأسف سوى جمعة واحدة نصليها بالحرم المقدس .

وقد شاهدنا الزحام بل الالتحام فى أوقات الصلاة الأخرى فبادرنا بالذهاب إلى المسجد فى الساعة العاشرة من صباح الجمعة ومع ذلك وجدنا اكتظاظا يحول دون مرورنا ، ولولا أننا كنا قد اتفقنا مع حارس مقام مالك فى اليوم السابق على حجز أماكننا لما استطعنا الجـلوس مطلقا خصوصا أن ما ليس له سقف من ساحة الحرم كان تحت تأثير أشعة شمس محرقة مع أننا كنا فى الخامس من شهر فبراير فلم يكن من المستطاع أن نجلس تحت السماء ، وقد قضينا أعمارنا نجلس فى المكاتب تحت السقوف ، فلم نعد نحتمل الشمس فى اشتداد سطوعها ، لأن حرارتها أقوى مما تعودناه منذ الصغر ، ولانستطيع التمتع بنور النجوم فى بهائها ، لأنها تسطع فى الليل حين نكون منكبين على أوراقنا من جهة ، وحين يكون هذا الجو الصافى رطبا وصعبا علينا

احتماله ، وهذا هو ما جتته علينا حياة المسكاتب . فلم يكن من المستطاع أن نجلس تحت السقف الدائر بالحرم ، لأنه مشغول بالسيدات وقد حسبنا حسابه واشترينا الأماكن من حارسها فحجزها وجلسنا مسرورين .

كان الوقت واسعا ، وكان الظهر بعيدا ، وفي مقام مالك ككل مقام آخر عدد لا حصر له من المصاحف الشريفة وقفها أهل الخير على الحجاج ، فجلسنا وفي يد كل منا مصحف يتلو منه آى الذكر الحكيم . فما أروع ذلك وما أعظمه .

ومع أن الزحام قد بلغ أشده فلا تزال الوفود تترى وقد جلس الناس على أبواب المسجد عندما يحجزوا عن دخوله ، وحضر قبيل الظهر أستاذنا الكبير الهلباوى بك فى عبادة من حرير « روب » ولما لم يجد مكانا خاليا أخلينا له مكانا وجلس كل منا القرفصاء . وبعد قليل من حضوره أذن الظهر .

إن صوت المسكين فى الحديث رقيق جميل ، وصوت المؤذنين منهم أجمل . ولست أحكم على ذلك بصوت المؤذن وحده ، فقد كان المبلغون مثله فى صوته رقة وجمالا ، ولست أذكر أننى سمعت فى مصر مؤذنا أكثر عذوبة ولا أكثر تجويدا للأذان من مؤذن مكة .

فأنت اذ تسمع الأذان من المؤذن لا تشك أنه مدرك
أدراكا تاما أنه واقف بين يدي الله .

الله أكبر الله أكبر يقولها بأسلوب يصل إلى قلبك ويجلي
لك أن الله أكبر حقاً فلا هي عبارة محفوظة يقولها أو أذان
يرتلها ، وإنما هو يعتقد ويشعر أن الله أكبر فيقول ذلك وأنت
تسمع أن الله أكبر كما تعتقد وتشعر ، فأذانه صادر من قلبه
مصوب إلى قلبك ، وأصل إليه بلا واسطة ، أشهد أن لا إله إلا الله
وأشهد أن محمداً رسول الله . أن من يسمع هتاف الرجل وهو
يرتل هاتين الشهادتين يرى أنه يؤدي الشهادتين حقاً ، بوجوده
وإيمانه ، وهكذا حتى أتم أذانه .

وصعد الإمام على المنبر — وكان قريباً منا — وقال السلام
عليكم ، فتذكرنا ما قرأناه عن عهد رسول الله وخلفاء رسول الله .
وتقدم المؤذن فأعاد الأذان بين يديه ، ثم ألقى الرجل خطبته
وأقيمت الصلاة ، وما كان الناس أحراراً يركعون ويسجدون
فالواقع أنه لم يكن هناك مكان يسع ركوعهم وسجودهم من شدة
الزحام ، فكانت تقع رأس أحد المصلين على ظهر الآخر .

سبعون ألفاً من الناس غير أهل مكة والحجاز يصلون في هذا
المكان ، فالمساجد الأخرى بمكة تكاد لا تستعمل ، فالحججاج
طبعاً لا يعرفون سوى الحرم ، ولا يفكرون في الصلاة في غيره ،

لأن الصلاة فيه تعدل صلوات في مساجد أخرى ، ومن ذا الذي يرضى أن يضع على نفسه الثواب بالصلاة في غير الحرم .

ولولا أن للإمام مكانته ، ولولا أن له عبيد يتهدى بينهما حتى يصل إلى مكانه وهما يفسحان له الطريق لوجد عناء في الوصول إلى مكانه .

ولعلك توافقني على فائدة العبادة ولذة الخضوع وحكمة الاسلام إذا علمت أن هؤلاء الألوف يتقابلون يومياً خمس مرات والصفاء يزداد بينهم ، والوئام يسود علاقاتهم فما حدث بينهم نفور ولا تراحم ولا مشاحنة ، وهم جميعاً مدفوعون بعامل واحد ، هو عامل التقرب إلى الله الواحد الديان .

مكة المكرمة

ما أظنني حين أتحدث عن مكة إلا متحدثا عن أحب المدن
إلى الله وإلى المسلمين من عباد الله .

وما أظن إلا أن اسمها يهز مشاعر الناس كما يهز شعوري
ويأخذ بمجامع قلوبهم كما هو آخذ بنفسى وقلبي وروحي !

فمكة ليست بلدا مما تستطيع الجغرافيا والتاريخ أن تتحدثا
عنه ، فما يتحدث التاريخ إلا عن نشأتها وما جرى عليها
من الأحكام والحكام على طول الأيام ، وما تتحدث الجغرافيا
إلا عن موقعها وتكوينها وطبيعتها ومكانها وما إلى ذلك ، ولكن
مكة الروحية ، ومكة بلد الكعبة !! وتلك الحياة التي لا توجد
في غير مكة ولا يمكن أن تشاهد في غير مكة !! ونفوس
المكيين ، ووصف مكة وهي غاصة بالحجاج ؟ ومكة التي تسع
عشرات الآلاف من الحجاج في كل عام ؟ هذه كلها إذا حاولت
التحدث عنها عجزت كل العجز عن بلوغ هذه الغاية !

مكة موطن النبي العربي الذي بعثه الله بالهدى ودين الحق
فأضاء العالم ، ونشر رسالته للمسلمين خاصة وللناس كافة .

مكة البلد الأمين حيث ولد رسول الله عليه السلام
وحيث نشأ وترعرع ، وحيث نزل عليه الوحي فكان هذا
الوحي قرآنا عربيا سمت آدابه عن كل آداب ، واحكامه عن
كل أحكام ، ودستوره فوق كل دستور ، وقوته فوق كل قوة
فكان في النفوس سحرا ، وفي الناس عدلا ، وفي القلوب هدى
وفي الصدور نورا ، وبقي مسيطرا على العالم منذ نزل وسيبقى
هكذا الى الأزل ، فسار المسلمون على تعاليمه واقتبس غير
المسلمين هذه التعاليم فجعلوها أسسا لقوانينهم ، وميزانا لأحكامهم
وظل صالحا لكل جيل ، موافقا لكل أمة وسيبقى — كما قلت —
صالحا لكل عصر ما بقيت الدنيا وما دام الزمان .

مكة بلد الرحمة ، هي أم القرى ، كان أول من هبطها نبي ،
وبعث منها آخر نبي ورسول .

وما أظنني حين أتحدث عن مكة سيطلب مني وصف
للشوارع والمنازل ، فانها لا تكاد تختلف عن طراز الشوارع
والمنازل في جدة ، وقد قلت ان قيمة مكة ليست في دورها
وشوارعها ، فإذا لم يكن هناك بد من أن أذكر عنها شيئا فإني

لذا كر ذلك بعد قليل ، ولكنها على كل حال بين كبيرة يكاد يقرب عرضها من طولها الذى يبلغ نحو الميلىن ، وشوارعها فى الغالب ضيقة خالية من النظام ، وذلك سببه ضعف الحالة المالية فى البلاد . لكنها مع ذلك بلدة مستقرة هادئة يستتب الامن فيها وتسير فيها احكام الشرع الشريف بكل ما فيها من دقة ، ولذلك تجد بها العدل وتشعر فيها بطمأنينة وأمن لا نظير لها فى أى بلد آخر .

نشأت مكة فى واد ليس به زرع ولا ماء ، وليس به أيضا أحد من السكان . أنشأها سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام قبل الميلاد بتسعة عشر قرنا ، فهى بذلك من أقدم بلاد العالم عهدا ، لها من العمر أربعة آلاف عام إلا قليلا ، فقد أمر الله تعالى ابراهيم بالهجرة بولده اسماعيل وزوجه ، فهاجر وخط رحاله بها وأنشأ بيتا اقاما فيه ، الى آخر ما مر بك فى الفصول السابقة ، ونشأت أم القرى كعبة للقاصدين ، . وقد توالى عليها قبل الاسلام وبعده حكام متعددون ، فقد ولى عليها رسول الله عليه السلام فى العام الثامن من الهجرة عتاب بن أسيد رضى الله عنه الى أن انتقلت الخلافة الى الخلفاء الراشدين ثم الأمويين ثم العباسيين ثم الفاطميين ، وظلت بعد ذلك يتناوبها الحكام حتى تغلب عليها اليمنيون وصارت بين المصريين واليمنيين يحكم فيها من

غلب ، ولما وقعت مصر في يد الاتراك تبعتها مكة فالحجاز .
وهذا وغيره هو سبب تعدد الاصول بمكة ، فالمكيون خليط
من العرب والمصريين واليمنيين والهنود والجاويين والاتراك ،
وقد ترتب على هذا أن اختلطت الانساب والاخلاق والعادات
وفي ذلك يقول المغفور له لييب البتانو في قوله الحق « لقد كان
اختلاط هذه الاجناس بعضهم ببعض بالمصاهرة والمعاشرة
مدعاة لأن صار سواد أهل مكة خليطا في خلقهم وخليطا
في خلقهم ؟ وهذا الذي قاله البتانو في بك منذ ثلاثين عاما تقريرا
لا يزال ماثلا الى اليوم . فلا تزال لغتهم مشوهة بما دخل عليها
من اختلاط المتكلمين ، ولا تزال أخلاقهم كما رواها ، ولهم
عبارات يتحدثون بها غير مألوفة ، بل هي غير دالة في ذاتها
على ما يقصدون اليه من معناها .

فإنك تراهم كما قال قد جمعوا الى طبائعهم وداعة الأناضولى ،
وعظمة التركي ، واستكانة الجاوى ، وكبرياء الفارسى ، وابن المصرى
وصلاية الشركسى ، وسكون الصينى ، ووحدة المغربى ، وبساطة
الهندوسى ، ومكر الينى ، ونشاط السورى ، وكسل الزنجى ، ولون
الحبشى ، بل تراهم جمعوا رقة الحضارة وقشف البداوة ، فبينما ترى
الرجل منهم قد آنسك برقة حديثه معك ، اذ هو قد استوحش
منك وأغلظ في كلامه حتى لكأن طبيعة البداوة قد غلبت فيه

تهذيب الحضارة فلم يطق ما تكلفه في حضرته . وقد وصل الخلط الى ازيائهم فإنك تراها مجموعة مختلفة من ازياء البلاد الاسلامية : عمارة هندية وقفطان مصرى وجبة شامية الخ .

وهذا الذى قاله البتانونى بك لا يزال منطبقا على الواقع بل إن ما دخل على البلاد من المدنية لم يغير كثيرا مما قال . ولست أدري متى تصبح مظاهر مكة مصقولة كما ينبغي .

ولعلنى أكون بما سبق قد وضعت أمام القارىء وصفا قصيرا لمكة على غرار ما كتبه المرحوم محمد باشا صادق . وإنك لتستطيع أن تدرك مدى تقدم البلد اذا علمت ان هذا الوصف وضع منذ نيف وأربعين عاما ولا يزال منطبقا عليها إلا القليل مما استحدث بعد ذلك كقصر الملك ، ودور الوزراء ، ومبنى بنك مصر ، وفندقه الجديد ، ولعل مما جذبها بعض مظاهر المدنية فى أثاثات المنازل والمقاهى ، فإنك لترى مقاعد أنيقة متوسطة فى كثير من الاماكن ، كما أن بعض الدور تضاء بالكهرباء بواسطة مولد خاص . واليك ما قاله صادق باشا فى رحلته :

« وأما مكة شرفها الله تعالى فهى بلدة كبيرة بين جبال صعبة المرور . . . وهوؤها جاف لزيادة حرارتها ، وهو طيب للصحة ، وبها من الجبال المشهورة جبل حراء ، وفيه الغار الذى

كان يتعبد فيه النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه حين أخرجه الكفار من مكة ، وهو يقع جنوبها بمسافة ساعتين ، وجبل النور شمالها ، وهو أول مهبط لجبريل عليه السلام ، وجبل أبي قبيس بشرقها ويوتها نحو ٦٥٠٠ وجميعها ذات خمس طبقات من الحجر الاصم ، وبها خلاف الحرم المكي ستة جوامع . والمساجد المشهورة بها هي : مسجد الراية ، والجن ، والإجابة ، والبيعة . وبها قلعتان وثلاث تكايا منها التكية المصرية ، وحمامان وتسعة خانات وست مدارس . . الخ

ومن فواكهها العنب والرمان والموز والبطيخ ، وهي تستورد البرتقال والتفاح .

هذا مجمل وصف مكة ، وهذا ملخص حال أهلها وأسباب المعيشة فيها

ولقد أقننا فيها ثمانية عشر يوما كانت من أسعد أيام حياتنا وقضيناها على خير ما كان يجب أن تقضى .

حياتي ثمانية

كنت أحسب أني سأقضي أيامي بين العبادة ، لأنني لم أسافر إلى مكة للدرس والاستقراء ، بل لأؤدي فرضا واجبا تهيأت ظروف قضائه فكان سفراً لله وفي سبيل الله . على أني مع ذلك كنت أعددت أوراقا أدون فيها مذكراتي عما تقع عليه عيني أثناء أداء الفريضة نفسها ، فلم اعتزم أن أنتقل أى خطوة للدراسة في ذاتها ، لكنني ما وصلت إلى السويس حتى اندفعت إلى البحث والكتابة بشكل لم أكن أعتقد أنه سيكون ، ولست أدري ما حفزني إلى ذلك كله ؟ أهو لأنني قضيت كل حياتي دارساً فلم أعد أستطيع أن أسلو الدراسة ، فلقد قضيت أيامي منذ السادسة من عمري متنقلاً من المكتب إلى المدرسة متدرجاً إلى المحاماة ثم إلى الكتابة والنيابة فلم أسترح يوماً واحداً من الدرس والتحصيل ، فأصبح عسيراً علي أن أتعطل لحظة عن الكتابة أو القراءة أو كليهما معا ، ولست أستطيع أن أرى جديداً لا أدرسه ، أو حديثاً لا أقرؤه على الرغم من العمل المضني الذي أزاوله ؟

أم كان الحافظ إلى ذلك ان الفرصة التي أتتحت لي بزيارة تلك الأراضي قد لا تتاح مرة أخرى وهي أراض مقدسة تنبعث في النفس رغبة قوية للتزود من آثارها، بل كل ما يحيط بها حتى التراب؟

أم حفزني شيء من رغبة المرء في اكتساب رضا الناس واحترامهم وتقديرهم، وما عسى أن يكون من الحرج لشخص مثلي إذا سئل عن شيء في الحجاز فلم يعرفه مع أنه قد يكون من اليسير إدراكه؟

لست أدري حقيقة ما حملني على حمل مفكرتي ثم السعي في البحث والتنقيب وانتهاز الفرص إليهما، فقد يكون سببا من هذه الأسباب، وقد تكون هذه الأسباب جميعا. وقد يكون مع هذه الأسباب ما لقيناه في تلك البلاد من أهلنا ومن أهلها. لذلك قسمنا أوقاتنا وكان للدرس والاستكشاف قسط كبير من هذه الأوقات.

والحياة في مكة حياة طيبة، لأن مكة بلد عامر بالرجال والأشياء عامر بالجماعات والأفراد، عامر بالعلماء والمتعلمين، عامر بالنظام والمنظمين، به نظام حكم جميل، وبه قضاء عادل، وبه صحافة وجمعيات للإسعاف والطيران وغيرهما، وبه متاجر وفنادق. وبه ما تحتاج إليه وما تألفه في أكثر البلاد نظاما.

نعم إن كل الذى بها يعوزه المال، ولكنه مناسب لحاجة البلاد ولما ليتها وهو كذلك جميل فى بساطته ، فلن تجد فيها صحيفة كالأهرام أو غيرها من الصحف اليومية المصرية ، ولكنك تجد فيها صحيفة تفى بحاجة البلاد ودرجة اتساعها وثقافتها .

جريدة أم القرى - لقد اطلعت على جريدة أم القرى - وهى الصحيفة الرسمية لحكومة الحجاز - فوجدت فى إحدى صحفها اسمى منشورا بين الحاجاج الذين وصلوا إلى مكة ، وأنا رجل أقدر الصحافة أعظم تقدير، وأحب رجالها، فاعتبرت نشر اسمى تحية لى وأردت أن أرد على هذه التحية ، فاستصحبته أحد أصدقائى إلى دارها التى تقع خلف دار الحكومة والتكية المصرية بقرب الحرم فوجدتها دارا كبيرة ، ووجدت بطاقتها الأرضى مطبعة يشغل فيها عدد كبير من العمال ، وسألت عن رئيس التحرير فاستصحبنا أحد رجال المطبعة إلى الدور الثانى وأرشدنا إلى غرفته ، وهناك لقينا « الاستاذ فؤاد شاكر » وقد قيل لى إنه صحفى مصرى كان يحرر فى « البلاغ » على ما أذكر أو فى إحدى الصحف التى أصدرها صاحب البلاغ قبله . لم أتحقق هذا الخبر، ولكن الرجل على كل حال قابلنا واحتفى بنا حفاوة بالغة ، وقدم لنا القهوة الحجازية، وحادثنا طويلا عن الصحافة وعن مقدار ما تسديه للناس من الخدمات .

لم أكن قد سمعت قبل هذه الزيارة أنه كان صحفيا مصرية فلم أفتحه في هذا الشأن .

وليست أم القرى كبيرة الحجم ، وهي تصدر أسبوعية حاوية لأخبار الحكومة كلها ، شاملة أيضا لأخبار البلاد ، فهي تقوم في الوقت بمهمة الوقائع الرسمية والصحف المحلية في القطر المصري وتنشر فيها مقالات أخلاقية ودينية بأسلوب قوى ، ومع صغر حجمها فإن معدات طبعتها موفورة . وتوجد بالحجاز صحيفة أخرى اسمها « المدينة المنورة » وتصدر بها .

فالصحافة هناك أمثلة أحسن تمثيل بقدر حاجة البلاد ومواردها . وعلى ذكر القهوة الحجازية لا بأس أن أذكر أنها قهوة تختلف عن قهوتنا ، فهي خلاصة ماء مغلى بالبن غير المصحون مع بعض أشياء أخرى تقدم في فناجين ولا تزيد على بعض نقط في هذا الفنجان ، ولكنها لذيدة الطعم والنكهة والرائحة . وكانت زيارتي « لأم القرى » أول زيارة لى في مكة أتبتها مباشرة بزيارة « التكية المصرية » .

ولقد شعرت عند ما دخلتها أننى في مصر ، بل اننى فى دارى بين أهلى ، فقد وجدت كل شىء مصرية ، فالدار مصرية أنيقة بالنسبة للمباني فى مكة ، ولها مداخل كمدخل الدور المصرية القديمة ، وإذا دخلت إلى حجرة ناظرها « وكان الدكتور مصطفى عبد الحاق

وجدته جالسا بملابسه العربية على مكتب مصرى وفى غرفة مفروشة بالسجاد ، ولقينا الرجل باشا ضاحكا فرحاً بأهل وطنه يحجون إلى داره ويأنسون إليه ، وقد كان يساعد المصريين كما لو كان سفيرهم هناك ، فكان خير عون لمبعوثنا السياسى والقنصلى هناك « الياس بك اسماعيل » فكم دأبا على خدمة المصريين ومساعدتهم ، وبذلا كل مجهود فى سبيلهم .

ولقيت هناك « الياس بك » وهو رجل دمث الأخلاق واسع الصدر ، طلق الحياء ، غزير الأدب ، يسمع شكاوى الكثرين ويساعد الجميع على السواء .

وقد قدمت لنا القهوة المصرية هناك فسررنا بها أى سرور . وجعلنا من كل يوم من أيامنا وقتا نقضيه فى دارنا هذه ، وكنا كلما زرناها زادت محبة أهلها لنا ، وزاد تعلقنا بها وبهم ، وكنا نقضى ذلك الوقت بين الياس بك والدكتور عبد الخالق والدكتور نجيب بك قناوى والدكتور عبد العزيز بك الغمرى رئيس البعثة الطبية هناك .

وقد وضع لى جليا أن البعثة الطبية تقوم بالمعونة الحقة والعلاج المستمر والملاحظة التامة لكل من وفد عليها من الزائرين من مختلف البلاد والاجناس .

وكان عبد العزيز بك يتردد على المرضى فى منازلهم

ومساكنهم متى علم بهم ، وكانوا غير قادرين على زيارته بدار
البعثة ، وليس من شك في أن عواطف هؤلاء الناس عواطف
سامية ، وهى تسمو حقا كلما كانوا غرباء بين الغرباء ، فإنك لتجدهم
إخوة ورسلا سلام ووثام ورحمة .

حدثت لى واقعة دلتنى على ما فى المصريين من كرم .
فقد اتصلت ببنك مصر من مسرة « تليفون » التكية أسأل عما
إذا كان تحويل نقودى من المنصورة إلى بنك مكة قد وصل
فأجابنى البنك بأن التحويل لم يصل إليه ، وأنه ربما يكون فى
جدة ، وأنهم سيتصلون بجدة لهذا الغرض ، وكان هذا الحديث
على مسمع من نجيب بك قناوى والدكتور مصطفى عبد الخالق .
وقد ظننا من سرالى أن نقودى قد نفدت ، فأمسك
الدكتور عبد الخالق بالتليفون ليطلب إلى البنك أن يصرف
لى ما أشاء من حسابه أو بضمانته ، وأخرج الدكتور نجيب بك
دفتر شيكاته ليحرر لى إذنا بنقود .

وعبثا حاولت إقناعهما بأن لدى نقودا كثيرة ، واننى رأيت
السؤال من باب العلم فقط ، وأننى فضلا عن ذلك معى والذى
ولديه نقوده التى تزيد على حاجتنا حتى نشترى هدايانا ونعود
إلى مصر ، ولولا اننى أقسمت لهما وأخرجت لهما حافظى فاطمأنا
لما أعفيانى من هذا التفضل .

ولكى تقدر قيمة هذا الجميل وعظمته أقدر لك  أنهما لا يعرفاني قبل الحج ولم يسبق لنا التلاقى قبل لقائنا بمكة، وكان هذا بما ضاعف قيمة الفضل وجعل له بهاء فوق كل بهاء .

لقد سبق أن ذكرت أن التكية المصرية مقابلة للحرم الشريف ، ولذلك يمكنك أن تصلى فيها خلف إمام الحرم فى أوقات الصلاة عندما يكون المكان فى الحرم مزدحما .

وهذه التكية تنفق رواتب منظمة للفقراء وبها عيادة لعلاج المرضى مجانا ، وتقوم بهذه المهمة طوال العام إلى جانب أعمال البعثة الطبية أيام الحج .

وتقع التكية المصرية إلى جانب دار الحكومة الحجازية بمكة ، وقد زرتها فى اليوم التالى وعرفت نظامها الإدارى ، ومن بين من زرته فيها رئيس الشرطة ووكيله .

وقد زرت المحكمة واطلعت على بعض قضاياها وعرفت نظام قضائها ، وهو نظام محكم .

في بيت الملك

عدت من التكية المصرية إلى دارى وأنا معتمزم زيارة دار الحكومة السعودية في الغد لأرى ما وصلت إليه الأنظمة في تلك البلاد، فوجدت دعوة لتناول العشاء في اليوم التالى على مائدة صاحب الجلالة ملك الحجاز، فرأيت تأجيل زيارة دار الحكومة إلى ما بعد ذلك اليوم عمى أن يباح لى فى تلك الحفلة التعرف إلى بعض رجال الحكومة فيسهل ذلك على الوصول إلى الغرض من زيارتى، لأنى وإن كنت قد دعيت إلى زيارة الدار من أحد موظفيها إلا أنها لم تكن دعوة لزيارة جميع فروع الحكومة.

كانت الدعوة الملكية مطبوعة على ورقة بيضاء جميلة ومحدد فيها وقت العشاء بعد صلاة المغرب فى اليوم المبين بها، وجاءت السيارات تنتظر المدعوين أمام باب الحرم ودار الحكومة، فركبت السيارة مع ثلاثة من رفاقي^(١) وسارت بنا حتى وصلنا إلى القصر الملكي وهو قصر مؤلف من طابقين، وأمامه سور يفصل بينه وبين الطريق. وقد وجدنا بعض رجال الحكومة عند الباب الخارجى

(١) هم عبد العزيز الغمري بك رئيس البعثة الطبية. وزكى بك حسين القاضى والاستاذ محمد مصطفى الموظف بنبابة مصر.

يستقبلون المدعويين ، وكانوا يرحبون بهم والبشر والسرور
ظاهرا ن على وجوههم . وإذ بلغنا الباب الداخلى صعدنا السلم
المفروش بالأبسطة الحمراء حتى وصلنا إلى الطابق الثانى ، وكان
كل منا يظهر تذكرته بيده ، وقد لاحظنا أن المدعويين يوزعون
على ثلاث حجرات فى القصر ، ودخلت مع صديق زكى بك
حسين إلى أول حجرة على يسار الداخل فى القصر بناء
على ارشاد رجال التشريفات ، أما الغمرى بك فقد دخل
إلى غرفة أخرى ، ولأحظنا أن تذكرته حمراء فسألنا عن القاعدة
التي اتخذت فى توزيع المدعويين ، فقبل لنا إن المدعويين يجلسون
فى ثلاث غرف ، الأولى حجرة جلالة الملك ، والثانية لنائب
الملك فى الحجاز ، والثالثة لسمو ولى العهد ، ولم تكن الحجرة
التي نحن فيها حجرة الملك .

ولست أخفى أن هذا التوزيع آلم عواطفنا ، وكان زكى
بك أشد منى ألما ، وتشاورنا فيما نعمل ، ففكر فى أن ننصرف
قبل العشاء ، فقلت له إننى معك ، فهيا بنا على شرط أن نفكر فيما
سنعتذر به إذا اعترضنا معترض ، وكان العذر حاضرا ، إذ أتى
سبق أن قدمت أن يد زكى بك قد جرحت يوم وصوله إلى جدة
ولا يزال تحت العلاج ويده مربوطة ، فإن سألنا سائل تعلمنا
بأنه فى حاجة إلى الراحة وتنظيف الجرح ، وهى حيلة قد تجوز

ولا تنكشف . وفعلا جازت على كثيرين، حتى اذا وصلنا الى الدور الأول عند الباب الداخلى وقابلنا رجل من رجال التشریفات وسألنا عن وجهتنا أفهمناه أننا منصرفان وذكرنا له العذر الذى اتفقنا عليه كما ذكرناه لمن سبقه فى الاستعلام ، ولكن الحيلة لم تجز عليه !

قال لدينا فى القصر مكان للإسعاف، فاعتذرننا، فأبى، فصممنا ولكنه صمم أيضا، وأخيرا قلت له إن لدينا سببا يحتم علينا الانصراف ويمنعنا الواجب عن ذكره فسمح لنا بالذهاب ، قال إن التقاليد لا تسمح بهذا فى القصور، فإن كان السبب شخصا فاصبرا عليه ، وإن كان السبب قد حدث هنا فاذكراه وأنا كفيل بإصلاح الأمر ، ولم نترحزح عن موقفنا ، وكاد يكون الموقف حرجا ، وساد صمت قليل قطعه علينا محدثنا بقوله « إني مصرى أصلا » وتقضى علينا أخلاقنا أن نكون أمناء لرؤسائنا فى أى بلد كنا، وهذه الأمانة تمنعنى من السماح لكما بالانصراف، ولكنى فى الوقت نفسه مكلف بالعمل على راحة الزائرين، قلنا : أمصرى أنت حقا ، قال نعم !. قلنا وهل يكون لنا شرف التعرف بك ؟ قال أنا عبد السلام غالى من علماء الأزهر الشريف ومن مديرية البحيرة ، ولى أخ فى مصر من رجال القلم، وعائلتى موجودة هناك وأنا أتردد عليها بين حين وآخر !

أأنت مصرى حقاً ؟

لقد كان سرورنا عظيماً بهذه المصادفة الجميلة، فالرجل نشيط
جم الأدب، جميل الخلق، هادئ الطبع، مخلص في عمله، يشغل
مركزاً ممتازاً في مكة وهو حركة دائمة ولقد فهمنا من معاملة رجال
القصر له أنه ذو مركز عظيم بينهم، لأنه محل احترام وتقدير.
قلنا له ما دام عذرنا لم يحجز عليك فلنذكر لك الحقيقة، فقد
شعرنا أننا وضعنا في مركز لا نوضع في مثله ببلادنا !!

قال ان رجال القضاء هنا محترمون كما يحترمون في مصر
تماماً، وليس توزيع الأمان في هذا الاحتفال مبني على أقدار
الرجال والتفريق بينهم وتمييز فريق منهم على آخر، إنما لوقت
التذاكر لحصر الذين يدخلون الى كل غرفة، لأن المدعوين
كثيرون ولا تسعهم غرفة واحدة، ولم يكن هناك بد من توزيعهم
على الغرف، حتى اذا ما شرف جلالة الملك غرفته ذهب الجميع
من مختلف الحجرات لمقابلة جلالته، ثم يذهبون جميعاً الى غرفة
المائدة حيث يجلسون في حضرته دون تمييز وحيث يجلس كل
منهم في المكان الذي يختاره، والذين جلسوا في غرفة النائب
أو ولي العهد أسعد حظاً، لأنهم سيتمتعون بمجالسة الأمراء
في حجراتهم، ثم يذهبون جميعاً الى مكان جلالة الملك عندما
يشرف فيتمتعون مرتين .

ثم استدرك فقال : على أنى إرضاء لكما ودرما لما عسى أن
يعلق بذهنكما من أثر هذا التوزيع سأذهب بكما الى غرفة جلالة
المملك مباشرة ، وسار أمامنا الى هناك .

لم يكن الملك جالسا عند دخولنا فجلسنا مع الجالسين فى
الانتظار ، وبعد قليل أحسنا بحركة ودخل بعض رجال البوليس
من باب الغرفة ثم تبعهم بعض رجال القصر يفسحون الطريق
وفى أثرهم دخل جلالته وتوجه إلى صدر الغرفة حيث جلس
فى جانب من ذلك الصدر الى يسار الياس بك اسماعيل ، والى يمينه
وزير يمنى على ما علمت ، ثم أشير للزائرين بالجلوس فجلسوا وأخذ
رجل من رجال التشرىفات يناديهم واحدا بعد الآخر فيقدمهم
الى الملك وهو يستقبلهم واقفا ويصافحهم جميعا ثم استدعى
من فى الحجرتين الأخرين فدخلوا وسلموا .

وتقدم بعض الخطباء ومن بينهم مصرى معروف فخطبوا
بين يدى جلالته ، ثم بدأ يلقي درسا على الحاضرين مقتبسا من
القرآن وتفسيره والدين وأحكامه ، ودعا الى الاتحاد والوفاق
بين العرب . ثم نهض جلالة الملك الى غرفة المائدة حيث جلس
بين وزير اليمن وقنصل مصر والمدعوون الى جوارهم على مائدة
مديدة فى غرفة طويلة اتسعت للمدعوين جميعا .

ونظام المائدة هناك أن توضع جميع أصناف الطعام على

المائدة قبل دخول الضيوف ، وهم يتناولون صنفاً بعد الآخر بالترتيب الذى يتناول به الملك طعامه بأن يؤخذ الطعام من كبار الاواني حيث يضعون أمام كل ضيف طعامه فى طبقه ثم يرفعون الاطباق كلها تغير الصنف .

كان أمام كل أربعة أو ستة ضيوف آنية كبيرة من النحاس « طشت » ملىء بالارز المخلوط ، وعلى قته حمل من الضأن وفى الاطباق الاخرى دجاج وسمك وأنواع الخضروالفواكه والحلوى والفطائر والفواكه ، وكانت الاخيرة هى التفاح والبرتقال والموز كان الطعام كثيراً جداً إلى حد أن أكل الحاضرون وشبعوا ومع ذلك بقيت الصحاف وهى تكاد تكون ملىء ، وكان ما فيها يكفى لثلاثة أمثال المدعوين على الاقل .

ولما انتهينا من الطعام قام جلالة الملك وتبعه الباقون الى حيث كانت الطشوت والأباريق النحاسية والفضية موضوعة فى ردهة على كراسى ، والخدم واقفون يصبون الماء على ايدى المدعوين .

ثم عدنا إلى صالة الجلوس وجعل جلالة الملك يلقي درساً آخر ، وعندئذ قدمت القهوة العربية ، وكان يقدمها رجال يلبسون حلالاً حمراء مزركشة جميلة الصورة ، متقنة الصنع مكونة من قطعتين .

ومن قواعدهم فى تقديم القهوة أن يضعوا فى الفنجان مقداراً

صغيراً ، ذلك أن القهوة عندهم تقدم مركزة فلا يستطيع أحد أن يشرب منها فنجاناً كاملاً وإلا خدرته ، ولا يمكنه إذا شرب كل ما قدم إليه كان هذا دليلاً على رغبته في المزيد فتقدم إليه كمية أخرى دون أن يطلبها .

وبعد قليل قدمت القهوة مرة ثانية ثم دخل الخدم مرة ثالثة يحملون أواني مملأة بالعطور فقدموا منها لكل الحاضرين وفهمنا أن دخولهم هذه المرات الثلاث وبهذا الترتيب الخاص إنما بنى على أمر جلالته بمقتضى اشارات اعتادوا عليها يصدرها لهم جلالته .

ثم وقف جلالته إيداناً بانتهاء الحفلة ، فتقدم الحاضرون للسلام عليه وانصرفنا حيث أعادتنا السيارات الى حيث كنا . وكانت هذه هي حفلة استقبال الحجاج في أرض الحجاز أعقبها دعوة أخرى من جلالته بعد العيد ، وكانت الآخرة حفلة الوداع في أرض الحجاز ، والحفلةتان متشابهتان في نظامهما كله عدا الأخيرة ، فقد كانت الدعوة إليها للحضور قبل المغرب بينما كانت الأولى بعده ، وكان عدد المدعوين في المرة الأخيرة أقل من عددهم في الأولى وكانت هناك بعض تغييرات في أصناف الطعام . وكان أهم ما لفت الأنظار في الحفليتين السابقين الديمقراطية العربية الصحيحة ، والكرم العربي المطبوع ، والأدب العربي

المؤسس على الغريزة، وتمسك ملك العرب بدين سيد العرب .
وقد رأيت جلالة الملك - وهو يشرب من ماء خاص -
يتحدث عن الماء الذى يشربه ، وكيفية استحضاره من عين
بعيدة عن مكة ، ورأى اكراما لجاره ان يقدم له آنيته الخاصة
ليشرب منها هذا الماء .

وكان من أجمل الآثار التى بقيت فى نفسى الى الآن كفاءة
المصرى أين حل ، وفى أى عمل يتولاه ، وأجمل من هذا أمانته
وإخلاصه لمن يوليه أموره ويأتمنه على أعماله ، وقد نالت كفاية
الاستاذ عبد السلام على وادب « عبد السلام على » وإخلاصه
كل اعجابى .

فِي دَارِ الْحُكْمِ وَالْقَضَاءِ

تقع دار حكومة مكة أمام الحرم ، بجوار التكية المصرية ،
وهي بناء متوسط الحجم ، به عدة غرف مقسمة بين عمل
الداخلية وعمل القضاء . ولوزارة المالية بناء آخر مستقل ،
كما أن لأمانة العاصمة والإسعاف دوراً أخرى .

زرت الحكمدار ، وهو يجلس في أول غرفة على يسار
الداخل ، فرأيت رجلاً محكماً مؤدباً ، أحسن استقبالنا وقدم
لنا القهوة الحجازية وجلسنا معه قليلاً فلم يعرض عليه أثناء
ذلك شيء من الأعمال ، ثم انتقلنا إلى وكيله « جميل بك » في غرفة
أخرى فوجدناه شاباً طلق المحيا مشغولاً بشتى الأعمال .

وشاهدت في أحد أركان غرفته عديداً من الأمتعة والناس
يدخلون إليه واحداً بعد الآخر يقدمون له أن أشياء فقدت
منهم في الطريق بين جدة ومكة ، فيسلم كلا حاجته بعد ذكر
أوصافها ، ورأيت شيخاً جليلاً يعرض أنه فقد « حرامه »
وهو « حرام مما يلبسه العلماء في مصر ويساوى من الثمن عشرين
جنيهاً مصرياً » وسرعان ما أمر « جميل بك » بإحضار هذا الحرام

وعرضه على الرجل فاستعرف عليه . فطلب اليه أن يقدم شهوده وقال له في أدب « اننى لا أشك في صدقك ولكنه شيء عظيم القيمة ، ولا أستطيع أن أسلمه دون تحقيق » فانصرف الرجل شاكرا هذا التقصى وعاد بعد ذلك ومعه شهوده فسلمه اليه . وتقدم رجل يطلب عباءة فقنت منه في الطريق فعرض عليه عباءة تماثلها ، وتأمل الرجل العبائة المعروضة عليه وتردد فقال له جميل بك : « تأمل جيدا فإنها ان لم تكن لك نهى لغيرك ولا بد أنه سيحضر للسؤال عنها » وأخيرا قرر الرجل أنها ليست له . ولم تكن هناك عباءة أخرى غيرها في الغرفة ، فطلب منه أن يذكر مكان فقدها وأن يذكر أوصافها بدقة ، وأن يعود اليه بعد غد ، فقد حدثته جـدة تليفونيا وأخبرته أن لديها أشياء مفقودة ستسملها اليه ولعل العبائة من بينها .

سألنا جميل بك كيف تصلحكم هذه الأشياء ، قال إن من يعثر على شيء يقدمه إلى أقرب نقطة بوليس ، وهى من جانبها ترسله اليها ، والناس يعلمون ذلك فيحضرون للبحث عن حاجاتهم .

قلت له : ألا يضيع شيء أبدا ؟ وهل كل ما فقد يعود إلى أصحابه ؟ قال نعم .

قلت له ضاحكا : لقد فقد منى فى ميناء جدة زجاجتان من شراب البزقال أحضرتهما معى من مصر فى حرز خاص

ولكن هاتين الزجاجةتين لم تعودا إلى مع لزومهما لضيوفنا في مكة .

قال لا بد أنهما في جدة ، وفي أثناء الحديث وعلى غير علم منا أمسك بمسرتة وطلب جدة وظننا أنه يطلبها لعمل آخر ووضع السماعة في انتظار خلو الطريق ثم قال : سأسأل الآن في جدة عن هاتين الزجاجةتين .

قلت : وهل طلبت جدة لهذا الغرض فقط ؟ قال نعم . قلت له إن أجر الماكلة يساوى ثمن زجاجة ، وليس للزجاجةتين في نظرنا أى اعتبار يكفي لبذل هذا الجهد ، ورجوناه أن يعدل عن هذا السؤال ، ولكنه تمسك برأيه الى أن أقنعتة اننى سأسأل عنهما بجدة عند سفرى إلى المدينة فافتنع وعدل عن الكلام ، ولكننى طبعاً لم أسأل عن الزجاجةتين إلى الآن .

قال إنه أحيانا تضيع بعض أشياء يسكت من يجدها عن التبليغ عن وجودها ، ويسكت فاقدها عن التبليغ عن فقدها ولكن هذه الأشياء قليلة ، وغالبا تكون صغيرة القيمة ، فمنذ أن جرى حكم الشرع فى الحجاز ووجد اللصوص ان أيدي السارق تقطع عدلوا عن السرقة ، إذ ليس فى الوجود شئ يعدل اليد التى يفقدها صاحبها ، فضلا عما يترتب على فقدها من الفضيحة والعار ، والعمل فى هذا القسم دقيق وسريع جدا .

كان طبعياً بعد ذلك أن أنتقل إلى القسم المخصص للمحكمة
فدخلت إلى غرفة بها عدة مكاتب يتوسطها مكتب القاضى وإلى
جواره فى الجانب الآخر مكاتب الموظفين ، وأمام مكتب
حضرة القاضى مقاعد مخصصة لجلوس المتقاضين ، وعلى مكتبه
آلة التليفون ، وهكذا تجد الغرفة معدة لجلوس الموظفين جميعاً
كما هى معدة لجلوس المتقاضين أيام الجلسات .

ولم يكن اليوم يوم جلسة ، ولهذا لم نجد حضرة القاضى
هناك .

وقد استقبلنا رئيس الكتاب وأخبرنا ان الجلسات تعطل
فى أيام الحج خصوصاً فى الأيام المحصورة بين قبيل العيد وبعده ،
لأن المسكين مشغولون بأعمالهم وأرزاقهم ومعاونة الحجاج ،
وهم كذلك مشغولون عن التقاضى بمتاجرهم وأعمالهم ، وهذا
طبعاً لا يمنع من المحاكمات المستعجلة التى لا يمكن تأجيلها .

وقد أطلعنى على بعض القضايا فوجدتها تحقق طبقاً للنظام
المعروف هنا ، فيسأل الشاكى وشهوده ويسأل المتهم ويناقشون
جميعاً بقدر ما تسمح به الحال ، وشاهدت فى قضايا العرب
كشوفاً طيبة مكتوبة بالآلة الكاتبة ترصف فيها الإصابات
وصفاً دقيقاً ، وتقدم هذه القضايا بمعرفة السلطة المختصة ويسمع
القاضى القضية من جديد ويحققها بنفسه ثم يقضى فيها بعد ذلك .

والقضايا هناك لا تحفظ بمعرفة سلطة التحقيق، وإنما يحفظها القاضى بعد تقديمها اليه ، ولعل الحفظ هناك أوسع من البراءة هنا ، فالمفروض فى البراءة أنها تقرر أن المتهم لم يرتكب الفعل أو لم يثبت عليه ارتكابه، أو ارتكبه وهو غير معاقب عليه ، أما الحفظ هناك فيشمل هذه البراءة وأنواع الحفظ المعروفة لنا فى مصر .

ويحكم القاضى الواحد فى القضايا العادية ، وهذا الوضع يختلف بالنسبة للقضايا التى تشتد فيها العقوبة ، فالقضايا التى يحكم فيها بالإعدام أو بقطع اليد ينظرها مجلس قضائى خاص زيادة فى التحرز والاحتياط .

وتسير الأحكام هناك على قواعد الشريعة الإسلامية حرفاً بحرف طبقاً للقانون السماوى الذى فصلت قواعده فى القرآن الكريم .

وهناك شاهدنا أشخاصاً قطعت أيديهم اليسرى وهم يسرون فى الطرقات يتكفون الناس .

ولست فى حاجة إلى أن أقرر أن هذا القانون يسرى على كل من يوجد فى الحجاز ، لا فرق بين وطنى وأجنبى ، ولم يحدث أن تفرز الناس منه على كثرة الأجانب هناك فى أيام الحج . بل إن هذا القانون موضع إعجاب العالم كله .

ليس هناك من ينظر الى هذا التناون على أنه غير مطابق
لروح العصر ، بل إنه معتبر رحمة كبرى ونعمة عظيمة ، واليه
وحده يرجع الفضل في استتباب الأمن في الحجاز ، وفي حرية
الإقامة والاطمئنان على الأنفس والأموال .

من ذا الذي يرضى أن يفقد يده لسرقة شيء من أعراض
الدنيا مهما غلا ؟ فما بالك إذا كانت السرقات عادة تقع على أشياء
تافهة كما نرى في بلادنا وغيرها من البلاد المتمدنية ، بل من ذا الذي
يسهل عليه أن يفقد يده لقاء رقيق أو قرش أو عود من القصب
أو بعض الثمار أو ما شابه ذلك ؟ ومن ذا الذي اذا سهل عليه
فقد يده يقبل على هذا العمل الذي لا منر لقاءه من قطع يده
فضلا عن الفضيحة المستمرة الملازمة له في الإعلان عن جريمته
في كل مكان .

لذلك تكاد السرقات تكون منعدمة هناك . ولهذا تجد عند
وكيل الحكم دار كل شيء فقده صاحبه غلا أو رخص . ولا
محل للظن بأن العبادة التي تغمر أرواح الناس هناك هي الدافع
لهم على عدم السرقة ، فقدما كان يسافر بعض الناس متظاهرين
بالحج والرغبة فيه ، وما كانوا يقصدون غير السرقة والنهب ، بل
أنك لتجد في مصر كثيرا من الناس يذهبون إلى المساجد بحجة
إداء الصلاة ثم يتهمزون استغراق المصلين في الصلاة

فيسرقون حذاء رخيص القيمة يهربون به . فليس الوقوف بين يدي الله في العبادة وحده رادعا للناس ، فالنفس الخبيثة لا يردعها الا الخوف من العقاب السريع الزاجر ، أما مخالفة الناس لله جل وعلا فكثير منهم يستهينون بها .

الواقع أن تنفيذ القانون السماوي هو الذي أمن الناس على أموالهم وأرواحهم ، فأكثر السفاكين في أرض الحجاز كانوا يقتلون من أجل الحصول على أموال الحجاج ، فهذه السرقة لم تعد هينة كما كان الحال في الماضي ، فإن من ينجح في السرقة لا يجد من يعاونه على اخفاء مسروقاته ، ومن يقتل يُقتل حتما فيصدر عليه حكم الإعدام ، ويحدد يوم لتنفيذه . والتنفيذ يكون في الطريق العام .

حدث أن اثنين ارتكبا جريمة القتل ، فقتلا علنا في الطريق العام أمام الحرم الشريف والتكية المصرية .

وكان أحد هذين القتاتلين قد تغيط يوما فحمل سكيناً وقتل أحد زملائه من الجاويين ، ثم زادت ثورته فضرب في طريقه كل من قابله أو حاول أن يتعرض له .

فلما كان يوم التنفيذ أعلان الأمر للناس ولم يتمكن من مشاهدة هذا المنظر ، لأنني كنت مشغولا بأمراً آخر ، فضلا عن أني لا أستريح لمشاهدة المناظر ، لكن الذين شاهدوه وصفوه لي

فقالوا أحضر الرجلان وأجلسا متباعدين، وظهر كل منهما للآخر
وقد أوثقت أيديهما وجلس سياف خلف كل منهما، فلما أعطيت
الإشارة للسياف هوى بسيفه على رقبة المحكوم عليه وضربه
ضربة واحدة عزلت رأسه عن جسمه ومات بعد قليل .

وهذه العلانية في الأحكام ، والشدة والدقة في إصدارها
وتنفيذها هي صاحبة الفضل الأول في استتباب النظام والأمن
في ربوع هذه الأراضي المقدسة .

عَرَافَاتُ وَالْمَزْدَلِفَةُ وَمِنَى

اقترَب اليوم الثامن من ذى الحجة، وهو يوم مغادرة الحجيج مكة إلى عَرَافَات لأداء مناسك الحج، اليوم الذى ينتهى بعد الليلة التالية له الامتحان !

ربنا وفقنا لما تحب وترضى . ربنا أتمم علينا نعمتك الخالدة ، ومنتك الباقية ، وأسبغ علينا من فضلك ما أسبغت علينا منذ هامت نفوسنا بهذه الفريضة .

ها نحن على استعداد للسفر ، وقد سبقنا مطوفنا فأعد لنا مأوى نأوى إليه الليلة التاسعة من الشهر ، وقد اتفقنا أن تكون خيامنا الثلاث متجاورة ليستمر بيننا الجوار والعرفان والوئام ، وليكون هذا تمهيدا لبقاء الروابط بيننا مدى الحياة .

نعم نحن على استعداد للسفر ، ولست أدري لماذا نشغف بكل حركة يستلزمها أداء هذه الفريضة : شغفنا بالذهاب إلى الحرم ، وكنا مدفوعين برغبة لا قبل لنا بدفعها ، وشغفنا بالتحرك للسعى بين الصفا والمروة ، وإذ أتيح لنا دخول الكعبة صعدنا السلم مهرولين حتى لتكاد تزل بنا أقدامنا .

لقد اتفقنا مع مطوفنا على أن يحضر لنا سيارتنا عقب صلاة

الظهر ، وأعددنا متاعنا لهذا الغرض ، لكننا فرغنا من الصلاة ولم تحضر السيارة ، فصلينا العصر وإذا بها تحضر . ولما أخذنا نعتب على مطوفنا اعتذر بالتزاحم على السيارات لذهاب الحجاج جميعا اليوم إلى عرفات ثم قال : وقد استطعت بجهد جهيد أن أختطف لكم هذه السيارة ، فركبناها وسرنا من الشبيكة « مقرنا » إلى خارج مكة بالقشاشية . وشاهدنا في طريقنا بيتا عفى عليه الزمن . لم ينل منه البلاء وإنما نال منه الحريق . عليه آثار النعمة التي أفناها الزمان ظاهرة ، ذلك هو قصر شريف مكة في الأيام الخوالي .

« اللهم مالك الملك تؤت الملك من تشاء وتنزع الملك ممن

تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير » .

اللهم لك في كل مكان آية تدل على أنك الخالق الحاكم المطلق لا تعقيب لأحد على حكمك ، ولا مرد لقضائك .

اللهم لك في كل مكان مظهر يدل على أنك الواحد القادر ، المعز المذل الباقي .

ها نحن الآن قد وصلنا إلى قصر ابن السعود . وخطر لي أن أذكر كيف دارت الأيام فانهى عهد وبدأ عهد ، واندر قصر وازدهر قصر ، ثم تذكرت قوله تعالى « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وأن القصور كذلك تجري عليها الأحكام ، والناس على اختلاف طبقاتهم لا يذكرون الله إلا إذا أملت بهم ملبة أو أصابتهم محنة .

لقد ذكرنى هذا المنظر بكثير من أمثاله فى مختلف الأقطار
وذكرنى بحادث حريق وقع فى عابدين من قرابة ثلاثين عاما قال
فيه المرحوم حفى بك ناصف قصيدته المشهورة التى مطلعها :
« قصر عليه تحية وسلام »

وذكرت إذ ذاك الفرق بين حكم الحجاز اليوم وحكمه
فى العهد الماضى ، والأمن الحالى والأمن السابق ، وعسف الحكم
فى الأيام الخوالى وعدلهم فى العهد الحاضر ، وادركت أن انهيار
ذياك السلطان واندثار ذلك القصر إنما كان جزاء وفاقا ، وأن الله
جلت قدرته قد أخذ حق عباده المظلومين من عباده الظالمين ،
وقيض رجال الحكم الحاضر لينشروا الأمن فى أرضه المقدسة ،
ويشيعوا الطمأنينة فى نفوس الذين تهوى أفئدتهم إلى أهل
الحجاز بالعطف والرحمة .

لقد كاد الناس قبل العصر الحالى ينقطعون عن فريضة
الحج وهم محقون ، فلقد كان الحاج يخرج من داره وهو معتقد
أنه متعرض للخطر وللموت ، ولذلك كان أهله يبيكون
عند خروجه .

ولعلك لا تدرك قيمة أرواح الناس فى ذلك العهد !! لقد كان
القتل فى تلك الأراضى أمرا هينا ، وإذا ظننت أن فى هذا أية
مبالغة فأليك ما كتبه المغفور له ابراهيم رفعت باشا فى رحلاته

التي انتهت سنة ١٩٠٨ في زيارة لجبل النور « في غار حراء »
 بالصفحة التاسعة والخمسين « ينبغي لزارى هذا الجبل أن يحملوا
 معهم الماء الكافى وأن يكونوا جماعات يحملون السلاح حتى يدفعوا
 عن أنفسهم شر اللصوص من العربان الذين يترصون لسلب
 الحجاج . فقد بلغنى أن أعرابيا قتل حاجا فلم يجد معه غير ريال
 واحد فقيل له : أقتله من أجل ريال ؟ فقال وهو فرح : ان الريال
 أحسن منه !! فانظر كيف بلغت القسوة من هذه القلوب . الخ »
 ويبدو لى أن رفعت باشا يحمل الحكم مسؤولية هذه الفوضى
 وإن كان يذكر ذلك بأسلوب الحكيم إذ يقول « ان للشرىف
 يدا قوية فى الدولة ، فأى الأمور طلب أجيب إليه ، بل غالب
 الشكايات منه ترد إليه ليفصل فيها بما شاء من شرع أو هوى
 ولا معقب لحكمه ، فالويل كل الويل لمن شكا ، نعم هذه اليد
 المستبدة « كذا » تناسب حال الأعراب . ولكن لو ضمت
 إلى القوة العدالة لكبح الأشرار عن سيئاتهم ، لأن للعدل
 من السلطان على النفوس ما ليس للقوة الغاشمة »

أليس هذا صريحا فى أن الباشا ينسب الفوضى إلى الشرىف
 نفسه ، ويتهمة بأنه يحميها ؟! لقد سمعنا إذ كنا فى الحجاز من رجل
 محترم حضر العهدين ان رجال الحكم فيما مضى كانوا على اتصال
 بالقتلة والسفاهكين واللصوص ، وكان لبعضهم على بعض إتابة ،
 والعهد فى ذلك طبعاً على الراوى ، وهو كما قلنا رجل محترم .

وقد ساق في التدليل على ذلك قصة فقد أمتعته وكيفية البحث عنها في سنة من السنين ، على أنى لا أجد محلا للشك في تلك الروايات كلها وإلا فما سبب انقلاب الحال من فوضى الأمس إلى أمن اليوم إلا أن يكون الانقلاب من ظلم الأمس إلى عدل اليوم ؟ ! تلك أفكار جالت بخاطري فقطعت في ذكرها الطريق من مكة إلى عرفات ، وها نحن قد وصلنا ولا تزال الشمس طالعة تسطع بأشعتها الذهبية اللامعة على رمال عرفة وجبل الرحمة ، فسبحان خالق الشمس والرمال ، وسبحان خالق الطبيعة وما يحف بجلالها من جمال .

أيها الناس : اطربوا وافرحوا . أيها الحجاج اذكروا الله ولا ذكر هنا لغير الله . أنما راعكم أن يجمع الله ثمانين الفا من الناس من مختلف الأقطار في قطعة من الأرض مقفرة ، فلا تلبث بين عشية أو ضحاها أن تمتلئ بالخيام وبالناس وبالمناجير والجمال والسيارات ، ثم لا تلبث ان تنفض هذه الجموع الزاخرة غدا فتعود مقفرة كما بدت ، ثم تبقى هكذا إلى العام القادم ؟ .

لقد اجتمعنا هنا للعبادة والانقطاع لها ، فكم نستمتع بهذه العبادة ؟ ان تلاوة الدعاء المعروف أحلى عندى آلاف المرات من ألف قيثارة في يد أعظم الفنانين شأنا ، إنه طرب ليس بعده طرب ، وفرح لا يعدله فرح ، ولذة روحية لا تضارعها لذة .

نحن في ليلة وقفة عرفات ! في عرفات نفسه ، فأى توفيق
أبدع من هذا ؟ لو كنا في ديارنا لكانت كل أمانينا أن نجتمع
بأولادنا وأهلنا وأقاربنا ، ولكن الله جل جلاله وروعة قدرته
الخارقة جعلت أفكارنا محصورة في عرفات وحده .

وتسامرنا مع زملائنا ثم انصرفنا إلى النوم فاستيقظنا قبيل
الفجر ، وعندنا إلى الاجتماع في الصباح ، فقلت تعالوا بنا نشترك
في غداء اليوم ، وفعلنا اشتركنا وساهم كل منا فيه بنصيب ، وما كان
الغداء إلا حملاً ثمنه خمسة وأربعون قرشاً وبعض من البطاطس
والبطيخ ، ولكنه كان غداء جميلاً شهيئاً .

ولقد كان نهار عرفات حاراً بمقدار ما كان ليلاً بارداً ، ولكن
جمال الموقف ألهانا عن البرد وعن الحر معا .

إن الوقوف بعرفات شرطه أن يكون بعد زوال اليوم التاسع
ويمتد إلى غروبه ، ومعلوم أن عرفات كلها موقف . ولكن أنى
إننا أن نصبر على الرقوف بمكاننا والجبل على قيد أمتار سناء وأنى
لنا الصبر على صعود الجبل إلى وقت الوقوف ، فلنذهب
إلى الجبل فنصعد عليه لنستمتع به ، ثم لا ضير أن نعود بعد
ذلك في الموعد الذي يتم فيه الحج .

لقد انتشر رجال الشرطة لينعوا الازدحام عليه ، مخافة أن
يصيبهم مكروه من جهة ، وليظل الطريق واسعاً حتى يحضر

الملك ويصعد عليه من جهة أخرى ، ولكننا استطعنا أن نصعد إليه ، وهو مدرج تدريجاً بعضه طبيعي وبعضه قد هذبته يـد الانسان ، وقد شاهدنا عليه مصلى قيل إن النبي عليه الصلاة والسلام قد صلى فيها ، ولكن المؤرخين ينفون هذه الرواية ويقررون أنها نشأت بعد عهده عليه السلام ، ووجدنا في أعلاه مسطحاً كبيراً مستوياً الأرض ، مربع الشكل كل منتظم الوضع فوقفنا عليه قليلاً ثم انصرفنا .

إن العادة قد جرت على أن يصعد على جبل الرحمة خطيب شرعى يخطب الناس ويدعو ، وهم يرددون دعاءه ويقولون فى صوت واحد « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك »

وكانت ساعة رهيبة حين اجتمع الجميع على جبل الرحمة وعلى سفحه فلا تكاد تبين اجسامهم أو ترى الأرض من تحتهم لكثرة عديدهم ، ولا شك ان هذه لحظة من لحظات العمر التى تسمو فيها النفس عن الحياة وعن الأحياء .

وإنه لمنظر حبيب رهيب إن غاب عن العين فقد سكن فى الذهن لا يغيب عنه أبداً ، وإنها لذكرى كل شىء فى العالم ينسى إلاها .

وإن تعجب لقدرة الله فإن يكون عجبك مقصوراً على أنه

جل جلاله قد خلق العالم بما فيه من نعماء ، ولا لأنه خاق الإنسان
وصوره وأودع فيه كل بهاء ، بل سيدهرك اجتماع هذه الآلاف في
صعيد منعزل عن العالم ، مقفر ، ويزداد عجبك إذا شاهدت الماء
ينساب في هذه الجبال . هنالك مدت زبيدة الصالحة زوج
هارون الرشيد عين حنين في قناة إلى مكة لكي تروى الظالمين ،
لأنها عرفت ما يقاسيه الحجاج من قلة الماء ، فأمرت بهذا العمل
الذي يعتبر من أهم الأعمال العمرانية الخيرية الخالدة في تلك
الأراضى الجذباء .



لقد فات غروب اليوم التاسع من ذى الحجة . وقفنا ووقفنا
بعرفات وأتم الله نعمته علينا فقم الحج . اللهم لك الحمد والشكر
على ما أوليتنا ، اللهم وقفنا لما بقي من الواجبات واجعلنا
من المقبولين فسننصرف إلى المزدلفة فنى ، وسينصرف اليهما
هؤلاء الناس جميعا في لحظة واحدة ، وسينفض الجمع في عرفات
ولا يجتمع فيه أحد إلا بعد عام كامل ، وهؤلاء جميعا منصرفون
طواعية وخضوعا لقوله تعالى « فإذا افضتم من عرفات فاذكروا
الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم » فإلى المشعر
الحرام جميعا .

ولما وصلنا وقفت بنا الرحال لتتجاذب أطراف الحديث

ثم أخذنا في جمع الحصيات من الأرض لترجم بها في منى .
ولا يهولنك أن تعلم أن الثمانين ألفاً من الحجاج يجتمعون
على هذه الأرض ليجمع كل منهم بين الخمسين والسبعين حصاة
تقريباً من حجم معلوم ، وهذه الأرض تتيح ذلك كله . وليس
هذا سهلاً ، ولكن الله يسره لي ، فقد ذهبت لصلاة العشاء
فأخبرت أن بالمزدلفة مسجداً رأيت ضوءه على بعد يسير
فذهبت إليه فوجدته مؤلفاً من سور قصير يحيط بقطعة من الفضاء
عارية عن السقف ، خالية من الفراش ، فصليت ولا حظت أن به
عدداً من الحصى . فجمعت منه حاجتي ، وبعد ذلك جلست تحت
السماء أنتظر ساعة الانتقال إلى منى ، وكان الجو بارداً جداً أصابنا
منه شيء ، ولكنه كان في سبيل الله .

بَيْنَ مَسْنَى وَمَكَّةَ

ركبنا سيارتنا في المزدلفة بعد منتصف الليل ، وتوجهنا الى الخيمة التي اقامها لنا مطوفنا فألقينا متاعنا وجلسنا نستريح ، وكان الهواء عاصفاً حتى كاد يقتلع قوائم الخيمة لولا أنها كانت مثبتة فتغلب عليه ثباتها وبقينا بها حتى مطلع الفجر ، ثم اجتمعنا وانقسم جمعنا الى فريقين : يرى أولهما أن الجمار يمكن رميها في ذلك الوقت ، ويرى الثاني أنه يجب أن يكون رميها عند الظهر ، ولكننا أجمعنا بعد ذلك حسب ماقرر العلماء على أنها ترمى في صباح ذلك اليوم ، فتوجهنا اليها لرميها استعدادا للنزول الى مكة بعد ذلك .

ولقد كان منظر أرائعاً أن ترى الناس على اختلاف طبقاتهم وبلادهم وبينهم الملوك والامراء يتوجهون بنظام واحد الى هذه الجمرات فيرمونها بالأحجار التي التقطوها من المزدلفة ، ولهذا ذهبنا افواجا متلاحمة الى « جمره العقبة » في أول منى فقدفناها بسبع حصيات ثم انصرفنا مكبرين واتجهنا الى مكة حيث قمنا بطواف الافاضة وسعينا بين الصفا والمروة ، ثم عدنا الى منى حيث قضينا ليلتنا . وفي زوال اليوم الثاني رمينا الجمار ثلاث مرات ، وكذلك في اليوم الثالث ، ثم عدنا مرة أخرى الى مكة لنستعد للسفر الى المدينة المنورة . وفي خلال ذلك دعانا ملك الحجاز لتناول العشاء على نحو ما أوصخته سابقا .

وقد قضينا بمنى أيام العيد، وكنا نحس أننا حقيقة في عيسد
تبادل الزيارة والتهانى مع زملائنا، وللحكومة المصرية هناك
أثر جليل، فلها مبنى به سبيل للمياه واستراحة للزائرين، ولها
بعتها الطبية تداوى المرضى وذوى العلة من جميع الطبقات
والجنسيات، وتصرف لهم الأدوية بغير مقابل .

ولست أخفى عليك أن مسألة رمى الجمار كانت محل تفكير
الكثيرين منا يسألون عن علتها ومغزاها، ويقول بعضهم: أى
أثر لهذا العمل على الشيطان، وقد كنت من المحبذين والمؤيدين
لرمى الجمار حتى دون أن تبحث علتها ومرماء، ذلك لأن
الاحساس الذى يستولى على النفوس وقت رميها إنما هو
احساس صحيح بالعداوة التى تكمن فى النفوس لهذا الشيطان،
وازدراء أمره واحتقار شأنه، وهو تضامن واتحاد بين الناس على
هذا الازدراء وذلك الاحتقار .

على أنه قد ثبت فوق ذلك أن لرمى الجمار حكمة أخرى هى
احياء عهد ابراهيم عليه السلام، وفى ذلك ما فيه من غذاء للنفوس
بدين الله وذكر للتاريخ القديم، ولهذا فانك لا يمكن أن تعبر عن
الشعور الذى يستولى عليك حين القيام بهذه الحركات الاجتماعية
التي يؤديها مختلف المسلمين من شتى البلاد .

وبعودتنا الى مكة بعد اتمام طواف الافاضة والسعى
وتحللنا من الإحرام على النحو الذى سبق بيانه يذتهى الحج

بسلام، واذذاك أحسست أنى أدبت الفريضة، ودعوت الله أن يستجيب حجى، وأن يقبل عبادتى، وأن ييسر لى أمر زيارة قبر النبى عليه الصلاة والسلام .

وتوجهنا الى رئيس المطوفين، وطلبنا اليه التصريح لنا بالسفر فامتنع قائلا : ان الحكومة الحجازية أمرت بألا يغادر حاج مكة الا بعد صلاة الجمعة، فتوجهنا الى سفيرنا هناك وعرضنا عليه الأمر وأفهمناه أن إجازتنا على وشك الانتهاء، وأنه ليس هناك بد من رحيلنا الى المدينة لنقضى بها واجبنا ثم نغادرها الى بلادنا حيث ينتظرنا أهلونا وأعمالنا، فتعهد بتيسير مهمتنا واتفق معنا على أنه سيتحدث مع وزير المالية الحجازية فى هذا الشأن فى حفلة العشاء التى كنا مدعوين اليها فى قصر الملك مساء ذلك اليوم، وفعلا استصدر من الوزير تصريحاً بسفرنا فاصطحبنا مطوفنا بعد ذلك الى شركة السيارات، ولكن مديرها أبى أن يسمح لنا بسيارة إلا أن يصله تصريح رئيس المطوفين . وهذا الأخير حين عرضنا عليه حالتنا تعنت دعنا إلى حد كبير . ولا بدلى من أن أقف هنا وقفة طويلة استصرخ فيها حكومة الحجاز ألا تضع حرية الحجاج ومصالحهم فى يد هذا الرئيس، وهو رجل طاعن فى السن، ضيق الصدر، قليل الاكتراف بمصالح الناس وأوقاتهم، فلست ترى مطلقاً أى حاكم يعامل رعاياه بهذا العنف الذى يلقى به هذا الرئيس من يتقدمون اليه، فهو يتخذ

مكانه في غرفة يقف على بابها ثلاثة من رجال الشرطة يجربون الناس عنه ولا يدخلون أحداً إلا باذنه ، فإذا دخلت عليه تجهم وإذا كلمته سكت ، وإذا نطق نأر ، وإذا دخل عليه أحد المطوفين ابتدره بالسب والاهانة ، ووجه اليه من الإهانة ما لا يخطر على أي بال . كنت اعتقد أن المسألة عنده مسألة نظام وحقوق فطلبت اليه التصريح لنا بالسفر فصمم على الامتناع ، فصارحته بأمر الوزير فأبدى عدم الاكتراث بهذا الامر ، فخرجت من عنده ساخطا على هذه المعاملة متأففا من تصرفه وشكوت الى اخواني فرأوا أن أعيد مقابلة الوزير ، ولكن الوزير كان غائبا عن ديوانه ، فرأيت أن أتحمّل على نفسي وأعود الى مقابلة هذا الرجل ، واستصحبته صديق الاستاذ زكي بك حسين ورجوته ان يصانع الرجل ، لأن نفسي لا تحتمل التحدث اليه بعد ما حدث ، ودخل من خلفنا مطوفنا فاشتراط الرجل علينا ألا يحادثنا الا اذا خرج المطوف من بيننا . وبعد مناقشة طويلة صرح لنا بالرحيل ، فأخذنا منه التصريح وذهبنا به الى شركة السيارات وكان ذلك في الساعة الشامنة من مساء يوم الثلاثاء واتفقنا على أن السيارة ستصل الينا قبيل الفجر ، فحزمنا أمتعتنا وقضينا الليل كله في الانتظار ، وجاء الفجر ، ثم طلعت الشمس ثم علت ولم تحضر السيارة ، فذهبنا الى الشركة مرة أخرى ، ولكن المطوف لهوى في نفسه استحضّر سيارة تزيد حمولاتها عن عددنا

وأوهمنا انه استصدر تصريحاً لآخرين فركبنا جميعاً وخرجنا الى ابواب مكة قبيل الظهر، ونحن راضون بما تم ، غاضون أنظارنا عما لقيناه من الإعنات، ولكن حارس الباب في مكة منعنا لأن عددنا يزيد عن المصرح لهم .

فأى تصرف هذا الذى فعله المطوف والذى فعله رئيسه ، وأى عبث بالحريات وكرامة الناس هذا الذى ارتكبه المطوف أخيراً ؟ وبعد طول السعى انصرفنا بعد الغروب بعد أن ظللنا واقفين بباب مكة ست ساعات كاملة .

كل شيء جميل فى بلاد الحجاز حتى منازلها على بساطتها تبعث فى النفس روعة وجلالا ، وطعامها على قلة أنواعه يبعث فى النفس لذة وإقبالا . وهواؤها عليل وجوها جميل والمعيشة بها هادئة مستحبة ، ولولا أن الوقت ضيق لأطلقنا المكث بها . فإن أهلها ذوو همة ونشاط وكل منصرف الى ما هو ميسر له . وليس فى مكة عيب إلا هؤلاء المطوفون ورئيسهم ونظام شركة السيارات بها ، ولو أن حكومة الحجاز عاجلت هذا الموضوع وجعلت السفر حراً والطواف حراً لما وجد أى معترض اعتراضاً على مكة وما فيها، ولكن ذلك دافعاً للناس الى الحج فيزداد عددهم كل عام ، ولكن هذه الطريقة العنيفة المذلة للنفوس الحاسية للحريات لها اسوأ الأثر فى قلة الحجاج فيجب أن يلغى ما يسمونه « بالفسح » أو نظام « الفسح » حتى يطمئن الناس الى حريتهم

ولن يقلل ذلك شيئاً من النفقات التي ينفقها الحجاج في كل عام .
 وإذا لم يك بد من تحديد يوم لا يسافر الناس قبله فلتترك لهم
 الحرية الكاملة في ذلك اليوم فلا تتدخل الحكومة في ترحيلهم
 وليس يجوز أن تستغل الفريضة على هذا النحو من الاستغلال .
 ولا يفوتني وأنا أغادر مكة ، متجها الى المدينة المنورة من
 طريق جدة الذي لا طريق سواه ، أن أنوه بأن الكعبة ليست
 هي المسجد الوحيد بمكة ، ففيها من المساجد الأثرية مسجد الأجابة
 الذي صلى فيه النبي عليه الصلاة والسلام ، ومسجد الصديق ،
 ومسجد البيعة عند حدود منى وكثير من المساجد الأخرى ، لكن
 الناس لا يقضون صلواتهم ولا تهجداتهم الا في البيت العتيق
 كذلك لا يفوتني أن أذكر أن بها دورا تاريخية كدار النبي عليه
 الصلاة والسلام في سوق الليل ، ثم دار خديجة بنت خويلد
 ودار أبي سفيان التي تشغلها الصحة العامة الآن . وبمكة من
 الجبال : جبل حراء ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يتعبد
 في إحدى مغاراته ونزل عليه الوحي أول ما نزل فيه .
 غادرنا مكة على النحو الذي أسلفنا ، واتجهنا الى جدة حيث
 تركنا بها الجزء الأكبر من امتعتنا ثم واصلنا السير الى المدينة
 واسترحنا بعض الوقت في المحطات القائمة على الطريق
 فاسترحنا في رابغ ثم قضينا ليلة في آبار ابن حصاني حتى إذا طلعت
 الشمس أشرقت نفوسنا لدخول المدينة .

المدينة المنورة

طلعت الشمس وركبنا سيارتنا إلى المدينة المنورة ، ونحن
ممتلئون فرحاً وغبطة وجلست بجوار السائق ، فأخذ يحدثني عن
المدينة وما فيها وقال لي بلمحة المؤمن الممتلئ بالإيمان انه لا يمل
الطريق مهما تكرر ذهابه وإيابه ، لأنه إذا ذهب إلى مكة تقبلته
الكعبة المقدسة ، وإذا عاد إلى المدينة فوجهته قبر الرسول
والصحابه ، فهو فرح في الحالتين ، واستمر بنا المسير حتى رأينا
على بعد مباني تعلوها قبة عالية قال انها هي القبة الخضراء التي
تظلل قبر محمد عليه الصلاة والسلام .

فذكرت اذ ذاك ان النبي صلى الله عليه وسلم ولد بمكة
وشاءت الأقدار أن يلاقى ربه في المدينة ، وذكرت قوله تعالى :
« وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي
أرض تموت » وأن المؤرخين أجمعوا على أنه صلوات الله
وسلامه عليه ولد بمكة ولكنهم اختلفوا في مكان مولده فقيل :
انه ولد بشعب بنى عامر شرقي مكة ، وقيل انه ولد بدار محمد بن
يوسف الثقفي ، وقيل إنه ولد بشعب بنى هاشم إلى غير ذلك من
الروايات ، وذكرت بعد ذلك ما لقيه عليه السلام من أهل مكة
وما اضطره إلى الهجرة إلى المدينة المنورة خوفاً من أهل مكة

وحدثني نفسي بما يقال في هذا من أسباب ، فقلت إن الله جلت قدرته الذي مكن له في الأرض وأدان له رقاب الأمراء وهياً له من السلطان ما نفذ إلى قلوب المسلمين جميعاً وما بعث في قلوب أهل الكتاب احترامه والعمل بنواميسه حتى جعلوا أعماله نبراساً لهم وكتابه قانونهم فأخذوا عنه العلم والتشريع واهتدوا بهداه إلى الاختراعات العظيمة التي ملأت الدنيا حياة وحركة ، وسموا وسعادة ، كان قادراً أن يحفظه من طغيان أهل مكة ويتكفل بحمايته وحفظه من كل أذى ، فلا بد من حكمة سامية لهجرت به إلى المدينة ليقم بين أهلها ويقم معه صحابته ، وأيقنت أن المدينة لا بد ذات سحر وجمال باهرين ، ووصلنا إلى مدخلها فوجدنا رجال الشرطة يرقبون كل سيارة تفد إليها ، ووجدت المدخل بوابة عظيمة البنيان ، وإذا جاوزتها شاهدت مبنى جميلاً علمت أنه محطة السكة الحديد الحجازية التركية ، ووجدت بها بعض القاطرات الواقفة والقضبان المهملة ، ولم أرد أن أشغل نفسي بمعرفة سبب تعطيلها ، لأنني كنت قاب قوسين أو أدنى من حرم الرسول فسارعت إلى الفندق حيث تركت متاعى واغتسلت وغيرت ملابسى ولبست الملابس البيضاء وسارعت إلى باب السلام فدخلت برجلي اليمنى ثم أتبعتهما باليسرى ووقفت أمام قبره عليه السلام ، ثم قبر أنى بكر وعمر وقرأت دعائى عند كل منهم .

ولست أستطيع أن أصور لك ما عراني من تأثر نفسي

وروحى، وما تصوره عند هذه المواقف، فهى مواقف ليس إلى
تصويرها من سبيل .

تصور أية رهبة وروعة تلاقيها وأنت فى هذا الموقف ؟
لقد كان المسجد بالغاً أسى آيات الزخرف، وبالغاً أسى درجات
الفن، لكننى مع ذلك كنت مأخوذاً بما هو أجل من ذلك،
بما لرسول الله من عظمة وجلال .

كنت مشغولاً بتلاوة دعاء أخذ على نفسى كل
إحساسها وشعورها، وهو « السلام عليك يا رسول الله ورحمة
الله وبركاته، أشهد أنك نبي الله، وإنك قد بلغت الرسالة وجاهدت
فى سبيل الله حتى تم النصر لك، قد وفيت عهدك وأمرت ألا
نعبد إلا الله وحده لا شريك له » ولقد خيل اليّ من جمال هذا
الموقف وروعته أننا لسنا أمام قبر الرسول بل فى حضرته، وقد
اعتقدت أنه يرانى، وكنت أشد ما أكون شوقاً لرؤيته، ولم
أشعر يوماً ما بمثل ما شعرت به من المهابة أمام قبره الشريف .
ولقد شاهدت أمام المقصورات التى زرناها حرس جلالة
المالك يحولون بين الناس وبين التمسح بأسوارها النحاسية الجميلة،
ذلك لأنهم يخشون على الناس أن تلهيهم هذه المظاهر عن
الحقائق، وإن تنصرف عقائدهم إلى أن هذا التمسح والتقبيل
أثر من آثار العبادة، ففى ذلك بدعة يعملون على إبطالها، وقيل فى
صدد هذا الموضوع إنهم كانوا يرون رفع هذه المقاصير وقصر

الحال على إبقاء القبور عارية كما فعلوا في القباب التي كانت تزين مقابر البقيع ، لكي يعلم الناس ان التمسح بالنحاس والجدر أمر ليس من العبادة في شيء ، بل إنه من البدع المنهى عنها ، ولكنى لست أدري لماذا يحرم الناس من التمييز بين قبور العظماء وقبور العامة ؟ اليست الحياة كالموت ؟ واليس الموت هو الحياة ؟ فما بال الأغنياء يشيدون القصور كي يتمتعوا أنفسهم فيها بما لذ من طعام وما جمل من الزينة وما يحقق أكبر رفاهية من الطنافس والأنوار ، وهم يعلمون أن العامة لا يبلغون من ذلك كثيراً ولا قليلاً ؟

إن قبور الأنبياء والخلفاء والصالحين إنما تزخرف ويخلع عليها من الطنافس والكساوى ما يعتبر كتكريم من الأحياء لهم وإشادة بما أضفوا على الانسانية من خير وإصلاح .

أليس الناس بعضهم فوق بعض درجات ، وهم يختلفون في درجات الحياة وبعد الموت ، فكما أن لكل إنسان نظاماً في الحياة الدنيا فكذلك لكل انسان مقام في الحياة الآخرة ، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل لكل مقامه في حياته الأخرى فلا تثريب على الناس أن يجعلوا لهؤلاء الأموات الأحياء عند ربهم مقاما ظاهرا يعرف به فضلهم ليقتردى الأحياء بهم .

ومقام محمد لا يعلوه في القلوب مقام ولا يبالغ كائن في النفس مبلغه من التقديس والاحترام ، وما كان للقبعة دخل في هذا

التقدير وهذا التقديس ، لأنها في نفس كل مؤمن صادق الإيمان سواء من رآها ومن لم يرها .

ما ضر لو بقي البقيع ميمزاً فيه قبر عثمان وقبر ابراهيم وازواج النبي وحمزة والعباس والحسن بن علي ؟ ما ضر لو ميز هؤلاء بين المقابر ، وما ضر لو أن هذا التمييز رفع في النفوس مكانهم وأبقى على الأيام ذكرهم ، فهم في الواقع عليون في الحياة وبعد الحياة . وقبل مغادرتي المقصورة الشريفة أطرقت إطفرة أحسست فيها أن نفسي استضاءت إضاءة لا عهد لي بها من قبل ، وطفقت أكرر السلام عليه وأشهد أمامه ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنتك يا محمد عبده ورسوله ، وأمينه وصفيه ، وأنتك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت أمتك وجاهدت في الله حق جهاده وأقمت الدين وجاهدت العدو وعبدت ربك حتى أتاك اليقين ، ثم انتقلت إلى قبر أبي بكر الصديق فسلمت على خليفة رسول الله وصاحبه في الغار وأمينه على الأسرار ، ثم انتقلت إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فسلمت على مؤيد الدين ومحطم الأصنام ، ثم انتهيت إلى الروضة الشريفة فأديت بها بعض الصلاة ثم خرجت إلى البقيع فزرت قبور الشهداء وأصحاب رسول الله والتابعين .

والحرم المدني آية من آيات الله ، وعمل من عمل الرسول عليه الصلاة والسلام ، فإنه لما نزل بالمدينة المنورة مهاجراً اختار

البقعة التي يقوم عليها المسجد الآن وأخذ أنصاره والمهاجرون
يبنون عليها المسجد حتى أتموه، وكان أول بناء له بالطريقة التي كانت
تعرف إذ ذاك، ثم زاد بعد ذلك في سعته، وزاد فيه عمر بن الخطاب
وعثمان بن عفان والوليد بن عبد الملك، وظل هذا المسجد تتناوله
يد الإصلاح في أوقات مختلفة حتى أمر السلطان عبد المجيد بنقصه
 وإعادة بنائه على دعائم جديدة، وظلت عمارته عهدا طويلا
ثم أتم ما فيه من زخارف ونقوش، ومنذ سنوات قليلة قامت
الحكومة المصرية بإصلاح ما خشيت أن يصيبه الخلل من أجزائه.

وفي المدينة عدة مساجد: منها مسجد القبليتين، ومسجد الفتح
ومسجد قباء وغيرها من المساجد التاريخية القديمة. ومن جبالها
جبل أحد. ومن عيونها: عين الزرقاء، وعيون أخرى كثيرة
يستقي الناس من ماؤها.

تلك هي المدينة المنورة، مدينة المصطفى النبي العربي الأمي
صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الإصلاحات التي تمت في الأراضي الحجازية بعد أدائي الحج
أشرت في سياق الكتاب إلى ما يلاقيه الحجاج من بعض المتاعب
لاحتياج هذه البلاد إلى اطراد الإصلاح والتقدم العمراني ويهيجني
الآن أن أسجل أن أكثر ما لاحظته قد تناولته يد الإصلاح ،
وإني أدون هنا هذه الإصلاحات في قليل من الكلمات ، فإن مجرد
ذكرها ، وانتفاع مئات الألوف من المسلمين بها منذ إتمامها
لا شك اشادة بها وبمن سارعوا إلى القيام بها وهي :

(١) رصف طريق جده - مكة - عرفات

(٢) رصف المسعى وعمل مظلة له .

(٣) وضع مظلات (تندات) داخل الحرم المكي في امتداد جوانبه .

(٤) وضع مكبرات للصوت في الحرمين الشريفين بمكة والمدينة .

وفي مسجد نمرة بعرفات لإذاعة القرآن والخطب والأذان .

(٥) توصيل مياه الشرب من وادي فاطمة إلى جدة والاستغناء

بذلك عن الكندنسة .

(٦) تحويل طريق السيارات من رابع إلى المساجيد لتفاديا للمشقة

التي كان يتعرض لها الحجاج بسلوك المنطقة الرملية بوادي

« ابيار ابن حصاني » في طريق المدينة .

(٧) وضع أنابيب للمياه في عرفات ومنى ، محافظة على مياه

الشرب من التلوث .

(٨) عمل رصيف جديد لميناء جدة ترسو عليه البواخر لتفادي

المتاعب التي كان يلاقها الحجاج في ركوبهم ونزلهم .

مناك الحج وأكمامها وموافيقها في المنزهات الذهبية

المنزهات	المساكنية	الشافعية	الحنفية	النسك
دكرت	دكرت	دكرت	شرط	النسك
دكرت	دكرت	دكرت	دكرت	الأحرام من الميقات
دكرت	دكرت	دكرت	دكرت	طواف الأفاضة
دكرت	دكرت	دكرت	واجب	السعي
سنة	سنة	سنة	دكرت	الوقوف بعرفة في وقته
سنة	سنة	سنة	سنة	الوقوف عند الصخرات الكبار
سنة أو واجب	سنة مع القصر	سنة	سنة	خطبة الإمام خطبتين
سنة	سنة	سنة	سنة	الجمع بين الظهر والعصر في عرفة
لحظة من نصف الليل الثاني	بقدر حط الرجال في أي وقت من الليل	لحظة من نصف الليل الثاني	ساعة قبل الفجر	جميع المغرب والعشاء بمنزلة ليلة القدر الكافي للزول بمنزلة ليلة
من متصرف	من جاز يوم النحر إلى الظهر ويكره بعده ذلك إلى الغروب	من متصرف إليه النحر إلى آخر أيام التثريق	من فجر يوم النحر إلى فجر اليوم الثاني	النحر واجب ووقته
ليسلة النحر				رى جمرة العقبة يوم النحر بسبع حصيات واجب ووقته

واجب	واجب	واجب	واجب	الذبح للفارن بعد الرمي
سنة	أخذ قدر أنملة من	ركن	أخذ قدر أنملة من	الحلق أو التقصير واجب وأقله . .
سنة	جميع الرأس	سنة	ربح الرأس	الترتيب بين الرمي والذبح والحلق
سنة	سنة	سنة	—	وقوع الذبح والحلق قبل ظهر
سنة	سنة	سنة	سنة	يوم النحر
سنة	سنة	سنة	سنة	النزول إلى مكة لحواف الركن
سنة	سنة	سنة	سنة	يوم النحر
سنة	سنة	سنة	سنة	المبيت بني ليالي التشريق
واجب	واجب	واجب	من بعد الظهر إلى	رمي الجمرات الثلاث يوم ١١ و ١٢
كالشافعية	من بعد الظهر إلى	إلى غروب شمس اليوم	الغروب وأقبله من الزوال	للمتعجل « واجب » ووقته . . .
	الغروب فقط	إلى غروب ذلك اليوم	إلى غروب ذلك اليوم	
واجب	شرط	واجب	واجب	الترتيب بين الجمرات الثلاث
واجب	واجب	شرط	شرط	الخروج من منى للمتعجل قبل المغرب

مناسك الحج

رأيت ان أبين مناسك الحج على مذهب أبي حنيفة ، وهي
كما يلي :

أركان الحج : الوقوف بعرفة في وقته ، وطواف الإفاضة
وكونه أربعة اشواط .

شروطه : الإحرام ، والتلبية معه ، ووقوع السعي
بعد الطواف .

واجباته : الإحرام من الميقات ، والسعي ، والبدء بالسعي
من الصفا ، وإداء السعي ، والطواف مع القدرة ، والبدء بالحجر
الأسود في الطواف ، وستر العورة ، وركعتا الطواف ،
وتأخير صلاة المغرب مع العشاء ، والنفرة مع الإمام من عرفة ،
والوقوف بمزدلفة ، ورمي الجمرات ، والخلق أو التقصير ،
والترتيب بين الرمي ، والذبح .

سننه : السعي ، وطواف القدوم ، وعدم الفصل بين
السعي والطواف ، وموالاته الاشواط في السعي والطواف ،
والمبيت بمنى ايام التشريق ، وعدم تأخير الرمي الى الليل ،
وتأخير طواف الإفاضة عن الرمي . ومن أراد المزيد والتفصيل
بجميع المذاهب فليراجع الجدول المنشور في الصفحتين السابقتين
وما نشر عن ذلك مفصلا في غضون الكتاب

تمت الطبعة الاولى

في يولييه سنة ١٩٥٠

مطبعة العالم العربي بالقاهرة

الإدارة: ٥٣ شارع البريم باشا (النام شهر) ت ٤٤٧٠٦



LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 072535618